البيئة

هي الرحم الثاني والأم الكبرى

جمع وترتيب

من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

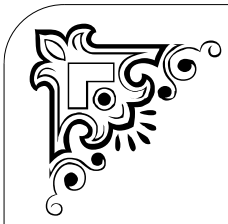

مُهِمَّةُ إِعْمَارِ الْأَرْضِ

فَإِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَكَرَّمَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا خَلَقَهُ، وَأَنَاطَ بِهِ مُهِمَّةَ عِمَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي اسْتَخْلَفَهُ فِيهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وَهَذَا الْخَلِيفَةُ هُوَ آدَمُ وَبَنُو آدَمَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ أَيْ: جَعَلَكُمْ فِيهَا لِتَعْمُرُوهَا، وَمَكَّنَكُمْ بِمَا آتَاكُمْ مِنْ عِمَارَتِهَا.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وَهَذَا التَّسْخِيرُ يَحْمِلُ فِي طِيَّاتِهِ كُلَّ مَظَاهِرِ التَّكْرِيمِ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الْأَرْضِ لِعِمَارَتِهَا، وَعِمَارَتُهَا بِعِبَادَةِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهَا، وَبِالْقِيَامِ عَلَىٰ مَا يُصْلِحُهَا.

وَقَدْ زَوَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذَا الْإِنْسَانَ بِكُلِّ وَسَائِلِ الِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، وَسَلَّحَهُ بِكُلِّ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ قِيَادَةِ دِفَّةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَإِدَارَةِ دَوَالِيبِ الْعَمَلِ فِيهَا، وَلِكَيْ لَا يَضِلَّ وَلَا يَشْقَىٰ بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَيْهِ الْمُرْسَلِينَ،

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ فِيهَا الشَّرَائِعُ وَالْحَقُّ الْمُبِينُ، وَعَلَّمَهُمْ أُصُولَ التَّعَايُشِ وَمَبَادِئَ التَّعَامُلِ، وَلَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَىٰ ضَرُورَةِ الِالْتِزَامِ بِآدَابِ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ، وَلَم يُبِحْ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ طَائِعًا مُخْتَارًا، وَأَشْعَرَهُمْ عِظَمَ الْمَسْؤُولِيَّةِ عَنِ الْإِخْلَالِ وَالتَّقْصِيرِ، فَقَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].(*).

«أَخْبَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ امْتَنَّ عَلَىٰ عَبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا، وَأَبَاحَ مَنَافِعَهَا، وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، أَيْ: مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَتَّجِرُونَ فِيهَا، وَيَتَسَبَّبُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ، وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٤]»(٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠].

«يَقُولُ -تَعَالَىٰ- مُمْتَنًّا عَلَىٰ عِبَادِهِ بِذِكْرِ الْمَسْكَنِ وَالْمَعِيشَةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: هَيَّأْنَاهَا لَكُمْ؛ بِحَيْثُ تَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَيْهَا، وَحَرْثِهَا، وَوُجُوهِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» - الْجُمُعَةُ ١٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٢هـ| ٢١-١-٢٠١١م.

(٢) بتصرف يسير من: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٥١).

الِانْتِفَاعِ بِهَا، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتِ، وَمَعَادِنِ الْأَرْضِ، وَأَنْوَاعِ الصَّنَائِعِ وَالتِّجَارَاتِ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي هَيَّأَهَا، وَسَخَّرَ أَسْبَابَهَا.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، وَصَرَفَ عَنْكُمُ النِّقَمَ»(١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

«﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أَيْ: وَسَّعْنَاهَا سَعَةً يَتَمَكَّنُ الْآدَمِيُّونَ وَالْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا مِنَ الِامْتِدَادِ بِأَرْجَائِهَا، وَالتَّنَاوُلِ مِنْ أَرْزَاقِهَا، وَالسُّكُونِ فِي نَوَاحِيهَا.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أَيْ: جِبَالًا عِظَامًا تَحْفَظُ الْأَرْضَ -بِإِذْنِ اللهِ- أَنْ تَمِيدَ، وَتُثَبِّتُهَا أَنْ تَزُولَ.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ أَيْ: نَافِعٍ مُتَقَوِّمٍ، يَضْطَرُّ إِلَيْهِ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ مَا بَيْنَ نَخِيلٍ، وَأَعْنَابٍ، وَأَصْنَافِ الْأَشْجَارِ، وَأَنْوَاعِ النَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ مِنَ الْحَرْثِ، وَمِنَ الْمَاشِيَةِ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالْحِرَفِ.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أَيْ: أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ بِعَبِيدٍ وَإِمَاءٍ، وَأَنْعَامٍ لِنَفْعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ رِزْقُهَا، بَلْ خَوَّلَكُمُ اللهُ إِيَّاهَا، وَتَكَفَّلَ بِأَرْزَاقِهَا.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣١٩).

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ أَيْ: جَمِيعُ الْأَرْزَاقِ وَأَصْنَافِ الْأَقْدَارِ لَا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، فَخَزَائِنُهَا بِيَدِهِ، يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أَيْ: الْمُقَدَّرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ مِنْ مَطَرٍ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا قَدَّرَهُ اللهُ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ»[1].

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٩٨-٤٩٩).

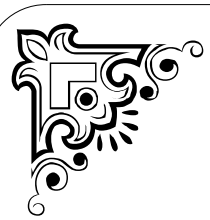

إِعْمَارُ الْأَرْضِ بِالتَّوْحِيدِ وَخَرَابُهَا بِالشِّرْكِ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَمَّا كَانَتْ حَاجَةُ الْبَشَرِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْحَاجَاتِ الْمَادِّيَّةِ وَحْدَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَهَبَ عِبَادَهُ مَنَاهِجَ يَتَحَقَّقُ بِهَا لَهُمْ صَلَاحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، وَوَعَدَهُمْ -إِنْ هُمُ اتَّبَعُوا مَنْهَجَهُ- بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ أَمَرَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ أَنْ يَهْبِطَا إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوا الشَّيْطَانَ عَدُوًّا لَهُمْ، فَيَأْخُذُوا الْحَذَرَ مِنْهُ، وَيَعُدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، وَيُحَارِبُوهُ، وَأَنَّهُ سَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ كُتُبًا، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يُبَيِّنُونَ لَهُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ، وَأَنَّهُمْ أَيَّ وَقْتٍ جَاءَهُمْ ذَلِكَ الْهُدَىٰ الَّذِي هُوَ الْكُتُبُ وَالرُّسُلُ؛ فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يَشْقَىٰ فِيهِمَا، بَلْ قَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ السَّعَادَةُ وَالْأَمْنُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ نَفَىٰ عَنْهُ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨**﴾ [البقرة: ٣٨].

وَاتِّبَاعُ الْهُدَىٰ بِتَصْدِيقِ الْخَبَرِ، وَعَدَمِ مُعَارَضَتِهِ بِالشُّبَهِ، وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ بِأَلَّا يُعَارِضَهُ بِشَهْوَةٍ»(١).

الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ بُعِثُوا بِالْإِصْلَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَنَهَوْا عَنِ الشُّرُورِ وَالْفَسَادِ؛ فَكُلُّ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ فَهُوَ مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَخُصُوصًا إِمَامَهُمْ وَخَاتَمَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنَّهُ أَبْدَىٰ وَأَعَادَ فِي هَذَا الْأَصْلِ، وَوَضَعَ لِلْخَلْقِ الْأُصُولَ النَّافِعَةَ الَّتِي يَجْرُونَ عَلَيْهَا فِي الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، كَمَا وَضَعَ لَهُمُ الْأُصُولَ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ.(*).

إِنَّ أَعْظَمَ سُبُلِ إِعْمَارِ الْأَرْضِ وَإِصْلَاحِهَا تَوْحِيدُ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَأَكْبَرَ سُبُلِ خَرَابِ الْأَرْضِ وَالْعَالَمِ الشِّرْكُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَنَا؛ لِنَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ أَرْسَلَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ، وَنَبَّأَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَلِأَجْلِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ قَامَتِ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ جُنْدِ الرَّحْمَنِ وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ؛ فَلِأَجْلِ تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلِأَجْلِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِوَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَانَ هَذَا كُلُّهُ.

التَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَأَوَّلُ أَوَامِرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَوَجَّهَ بِهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ أَمْرٍ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوَّلُ أَمْرٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٠٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ)، الْأَحَدُ ١ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ٦-١٠-٢٠١٣م.

هَذَا أَوَّلُ أَمْرٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ، وَأَرْسَلَ لِأَجْلِهِ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ لِأَجْلِهِ الْكُتُبَ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ أَحَدٍ أَخَلَّ بِهِ عَمَلًا.(*).

إِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَشَرِ تَارِيخًا؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام وَذُرِّيَّتِهِ هِيَ: عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ؛ كَمَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَآدَمُ عليه السلام أَبُو الْبَشَرِ وَحَوَّاءُ أُمُّهُمْ، وَقَدْ كَانَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَحِينَ أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ عَلِمَا أَنَّ لَهُمَا رَبًّا يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ؛ فَتَضَرَّعَا إِلَيْهِ قَائِلَيْنِ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وَقَدْ أَخَذَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَىٰ آدَمَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَكَذَا عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ وَهُمْ فِي صُلْبِ أَبِيهِمْ آدَمَ عليه السلام أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وَذُرِّيَّةُ آدَمَ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ كَانُوا يَدِينُونَ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ طِيلَةَ عَشَرَةِ قُرُونٍ، حَتَّىٰ حَدَثَ الشِّرْكُ فِي قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ نُوحًا عليه السلام يَدْعُوهُمْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «أَهَمِّيَّةُ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٠هـ| ٢٢-٨-٢٠٠٩م.

إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَكُلَّمَا انْحَرَفَتِ الْبَشَرِيَّةُ عَنِ التَّوْحِيدِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ، تَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَتَدْعُو إِلَىٰ نَبْذِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا رَسُولَهُ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَشَرِ تَارِيخًا، وَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَشَرِ فِطْرَةً؛ يَعْنِي أَصْلَ الْخِلْقَةِ، وَهِيَ مَا أَوْجَدَ اللهُ عَلَيْهِ النَّاسَ ابْتِدَاءً مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ ﷻ وَتَوْحِيدِهِ.

فَاللهُ ﷻ مُنْذُ أَوْجَدَ الْبَشَرَ فَطَرَهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ خَالِقًا وَمَعْبُودًا، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ مُنْذُ كَانُوا فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ.

وَاللهُ جَلَّوَعَلَا قَدْ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ -وَأُمَّتُهُ دَاخِلَةٌ فِي الْخِطَابِ- أَمَرَهُمْ: أَنْ يُقِيمُوا وُجُوهَهُمْ وَيُخْلِصُوا دِينَهُمْ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَىٰ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وَقَدْ أَخْبَرَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: أَنَّهُ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، مُوَحِّدِينَ مُسْلِمِينَ مُسْتَقِيمِينَ مُنِيبِينَ لِقَبُولِ الْحَقِّ قَابِلِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَىٰ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا، حِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي الذَّرِّ.

يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»(١): «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا».

فَالْعِبَادُ كُلُّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَلَكِنْ لِلشَّيَاطِينِ دَوْرٌ فِي مَسْخِ الْفِطْرَةِ وَتَشْوِيهِهَا.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ مُهَيَّأً لِلْإِسْلَامِ فِي قَوْلِهِ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»(٢).

إِنَّ الْفِطْرَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْفِطْرَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ لِأَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ، فَمَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ؛ فَلَابُدَّ أَنْ يَصْرِفَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ؛ كَمَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فَالْإِنْسَانُ إِذَا آمَنَ بِأَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الرَّزَّاقُ، وَهُوَ الَّذِي

---

(١) «**صحيح مسلم**»: ٤/ ٢١٩٧، رقم (٢٨٦٥)، من حديث: عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٣/ ٢١٩، رقم (١٣٥٨)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٤/ ٢٠٤٧، رقم (٢٦٥٨)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَأَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ.

فَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ -حِينَئِذٍ- أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَخْضَعَ لَهُ قَلْبُهُ؛ مَحَبَّةً وَإِنَابَةً وَذُلًّا، وَخَوْفًا وَخَشْيَةً وَتَوَكُّلًا؛ إِذْ كَيْفَ يَعْبُدُ أَوْ يَخَافُ أَوْ يُحِبُّ مَحَبَّةَ عِبَادَةٍ، أَوْ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ مَخْلُوقٍ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا.(*).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ أَيْ: أَوْجَدْتُ إِيجَادًا مَسْبُوقًا بِالتَّقْدِيرِ.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِأَيِّ شَيْءٍ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ.

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾: لِتَعْلِيلِ بَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنَ الْخَلْقِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾: أَيْ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: فِي كُلِّ طَائِفَةٍ، وَقَرْنٍ، وَجِيلٍ مِنَ النَّاسِ ﴿رَّسُولًا﴾: الرَّسُولُ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أَفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ﴾: وَاتْرُكُوا وَفَارِقُوا ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ: مُقَدِّمَةٌ، وَبَيَانُ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ١٩-٧-٢٠١٤م.

مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ؛ وَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ؛ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ.

الطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ -كَالْأَصْنَامِ-، أَوْ مَتْبُوعٍ -كَالْكُهَّانِ، وَالسَّحَرَةِ-، أَوْ مُطَاعٍ -كَمَنْ تَوَلَّىٰ أَمْرًا وَأَمَرَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ ﷻ-؛ فَلَا يُنَفَّذُ أَمْرُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَتَنْبَغِي طَاعَتُهُ فِيمَا سِوَاهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [الإنسان:٣٦].

بَيَّنَ لَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْحِكْمَةَ مِنْ خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ عَبَثًا وَلَا سُدًى، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِعِبَادَتِهِ.

وَالْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَأَوَّلُ مَا أَمَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ، وَوَصَّىٰ، وَأَوْجَبَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ: أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ.(*).

الشِّرْكُ سَبَبٌ فِي خَرَابِ الْعَالَمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَا انْفَرَطَ عِقْدُ التَّوْحِيدِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَبَقِيَ فِي الْأَرْضِ شِرَارُ الْخَلْقِ؛ جَاءَتِ السَّاعَةُ، وَجَاءَ خَرَابُ الْعَالَمِ، وَانْحَلَّ عِقْدُهُ مُنْفَرِطًا؛ لِأَنَّهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَىٰ شِرَارِ الْخَلْقِ، يَتَهَارَجُونَ كَمَا تَتَهَارَجُ الْحُمُرُ، حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ، وَيَصِيرُ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ: مَوْضُوعُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ١٩-٧-٢٠١٤م.

لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، وَلَا يُوَحِّدُونَ، فَحِينَئِذٍ يَحِقُّ الْخَرَابُ عَلَىٰ الْعَالَمِ، وَكُلَّمَا بَعُدَ النَّاسُ عَنِ الْعِبَادَةِ الْحَقَّةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَاءَهُمْ مِمَّا يَسُؤُوهُمْ مَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مُخَالَفَتِهِمْ، فَإِذَا عَادُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ كُرُوبَهُمْ.

وَأَنْكَرُ الْمُنْكَرِ الشِّرْكُ.(*).

فَالْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

إِنَّ التَّوْحِيدَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، فَإِذَا مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ الْعَبْدِ، وَحَفِظَهَا عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَعَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنْ زَوَالِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، بِمَعْرِفَةِ مَا يُضَادُّهَا -وَهُوَ الشِّرْكُ-، وَالْخَوْفِ مِنْهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾: اجْعَلْنِي وَبَنِيَّ فِي جَانِبٍ، وَاجْعَلْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي جَانِبٍ آخَرَ.

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾: وَالْأَصْنَامُ: جَمْعُ صَنَمٍ، وَالصَّنَمُ: مَا كَانَ مَنْحُوتًا عَلَىٰ شَكْلِ صُورَةٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أُمَّةُ التَّوْحِيدِ» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٣٠هـ| ١٠-٤-٢٠٠٩م.

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ: فَهُوَ صِدْقُ الِالْتِجَاءِ إِلَىٰ اللهِ وَالِاعْتِصَامِ بِهِ، وَأَنْ يُفَتِّشَ الْإِنْسَانُ عَنِ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وذَرَائِعِهِ -أَيْ: وَسَائِلِهِ-، وَمَهَالِكِهِ؛ فَيَحْذَرَ مِنْهُ.

وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَحَسَّنَهُ لِغَيْرِهِ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

الشِّرْكُ: هُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ، وَهُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ، وَأَقْبَحُ الْقَبَائِحِ؛ وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ ﷻ؛ قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨].(*).

الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ سَبَبُ أَوَّلِ شِرْكٍ فِي الْأَرْضِ:

لَقَدْ كَانَتِ الْبَشَرِيَّةُ الْأُولَىٰ عَلَى الْإِسْلَامِ طِيلَةَ عَشَرَةِ قُرُونٍ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾ [البقرة: ٢١٣]. قَالَ: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٣٨، رقم (٣٥٢٢)، من حديث: أم سلمة رضي الله عنها.
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي البَابِ عَنْ عَائِشَةَ وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأَنَسٍ وَجَابِرٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَنُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ»، والحديث حسنه لغيره الألباني في «**الصحيحة**»: ٥/ ١٢٦، رقم (٢٠٩١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِن: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةُ: بَابٌ: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ» - الْأَحَدُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٠-٧-٢٠١٤م.

(٣) أخرجه البزار في «**المسند**»: ١١/ ٩٩، رقم (٤٨١٥)، والطبري في «**جامع البيان**»: =

فَالتَّوْحِيدُ هُوَ أَصْلُ الْبَشَرِيَّةِ، مُنْذُ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ آدَمَ عليه السلام حَتَّىٰ وَقَعَ الشِّرْكُ فِي قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام.

فَأَوَّلُ شِرْكٍ وَقَعَ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ: شِرْكُ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام وَسَبَبُ كُفْرِهِمْ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ غُلُوُّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ، فَمَعْبُودَاتُهُمْ الَّتِي عَكَفُوا عَلَيْهَا وَتَعَصَّبُوا لَهَا وَقَالُوا عَنْهَا: ﴿**لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾**﴾ [نوح: ٢٣].

هِيَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ؛ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

إِذَنْ، الشِّرْكُ طَارِئٌ عَلَىٰ الْبَشَرِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ، وَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِهِ؛ لِأَنَّنَا بِذَلِكَ نَعُودُ إِلَىٰ مَا فَطَرَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ، مُوَحِّدِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حُنَفَاءَ، مُقِرِّينَ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَكَمَالِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.(*).

=

٢/ ٣٣٤، وابن أبي حاتم في «**تفسيره**»: ٨/ ٢٦٩٦، رقم (١٥١٨٤)، والحاكم في «**المستدرك**»: ٢/ ٤٤٢ و٥٤٦، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٦٢/ ٢٤٢، بإسناد صحيح.

قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»، وهو قول عكرمة أيضا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ: مُقَدِّمَةٌ، وَبَيَانُ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْتُ ٢١ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ١٩-٧-٢٠١٤م.

مِنَ الشِّرْكِ: أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ:

الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغَاثَةُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي تُصْرَفُ للهِ وَحْدَهُ، وَمَنْ صَرَفَ لِغَيْرِ اللهِ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الِاسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الْغَوْثِ، وَهُوَ الْإِنْقَاذُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْهَلَاكِ، وَهِيَ أَنْوَاعٌ:

* **الْأَوَّلُ: الِاسْتِغَاثَةُ بِاللهِ ﷻ**، وَهَذِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَمِنْ أَكْمَلِهَا، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩] أَيْ: مُتَتَابِعِينَ.

فَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الِاسْتِغَاثَةُ بِاللهِ ﷻ.

* **الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِغَاثَةِ: الِاسْتِغَاثَةُ بِالْأَمْوَاتِ، أَوْ بِالْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرِينَ غَيْرِ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ**؛ فَهَذَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الْكَوْنِ؛ فَيَجْعَلُ لَهُمْ حَظًّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ -وَا أَسَفَاهُ-.

* **أَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ أَقْسَامِ الِاسْتِغَاثَةِ: فَالِاسْتِغَاثَةُ بِالْأَحْيَاءِ الْعَالِمِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ**؛ كَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ فِي قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

* **الرَّابِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِغَاثَةِ: الِاسْتِغَاثَةُ بِحَيٍّ غَيْرِ قَادِرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لَهُ قُوَّةً خَفِيَّةً**؛ كَمَنْ يَسْتَغِيثُ بِمَشْلُولٍ لِيُنْقِذَهُ مِنَ الْغَرَقِ، فَهَذَا لَغْوٌ وَسُخْرِيَةٌ.

وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ: وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُ عِبَادَةٌ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

الدُّعَاءُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. أَيْ: أُجِبْ دُعَاءَكُمْ وَأَعْفُ عَنْكُمْ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أَيْ: يَتَعَظَّمُونَ عَنْ إِفْرَادِي بِالْعِبَادَةِ وَحْدِي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] أَيْ: أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

وَقَالَ ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١). أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ أَبْلَغُ بَلَاغَةً مِنْ ذَلِكَ الضَّعِيفِ الَّذِي لَمْ يَصِحَّ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مَا يُرْوَىٰ عَنْهُ ﷺ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه، وَضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي ضَعِيفِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ.

«**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» الْجُمْلَةُ مُعَرَّفَةُ الطَّرَفَيْنِ، وَهَذَا يُفِيدُ الْحَصْرَ، وَكَذَلِكَ أُتِيَ بِهَذَا الضَّمِيرِ -ضَمِيرِ الْفَصْلِ-؛ هُوَ أَيْضًا مُفِيدٌ لِلْحَصْرِ، فَهَذَا أَبْلَغُ بَلَاغَةً مِنْ ذَلِكَ الضَّعِيفِ؛ هَذَا الصَّحِيحُ يُغْنِي، ضَمِيرُ الْفَصْلِ هَاهُنَا بَارِزٌ ظَاهِرٌ يَدُلُّ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢٤٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَعْلَمُهُ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ تَذَوُّقٍ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ.

«**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»: فَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ سَوَاءٌ كَانَ الْمَدْعُوُّ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا، وَمَنْ دَعَا حَيًّا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ كَأَنْ يَقُولَ: يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي، يَا فُلَانُ اسْقِنِي؛ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

الدُّعَاءُ أَعَمُّ مِنَ الِاسْتِغَاثَةِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ مَكْرُوبٍ وَمِنْ غَيْرِهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمَكْرُوبِ.

وَيَنْقَسِمُ الدُّعَاءُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: دُعَاءِ عِبَادَةٍ، وَدُعَاءِ مَسْأَلَةٍ.

- **دُعَاءُ الْعِبَادَةِ هُوَ**: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ رَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ -وَهَذَا مُهِمٌّ أَنْ نَعْلَمَهُ-، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا كُنَّا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَنَحْنُ فِي دُعَاءٍ لِرَبِّنَا جَلَّوَعَلَا، وَهُوَ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ؛ وَهُوَ كُلُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَىٰ رَبِّهِ ﷻ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ رَجَاءَ ثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ؛ كَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالتَّسْبِيحِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَيَجِبُ أَنْ يُصْرَفَ للهِ -تَعَالَىٰ- وَحْدَهُ، وَصَرْفُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا شِرْكٌ أَكْبَرُ.

- **وَأَمَّا دُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ**: طَلَبُ مَا يَنْفَعُ الدَّاعِيَ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ؛ كَأَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ صِحَّةً فِي بَدَنِهِ، أَوْ كَشْفَ بَلَاءٍ حَلَّ بِهِ.

مَنْ دَعَا مَيِّتًا أَوْ غَائِبًا بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ؛ لِأَنَّ الْمَيِّتَ أَوِ الْغَائِبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِمِثْلِ هَذَا، فَدُعَاؤُهُ إِيَّاهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا فِي الْكَوْنِ؛

فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشْرِكًا، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤].

فَكَيْفَ يُصْرَفُ الدُّعَاءُ لِغَيْرِ اللهِ؛ مِنَ الْأَمْوَاتِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَحْجَارِ، وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَالْغَائِبِينَ؟!!

كُلُّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ، وَكُلُّ ذَلِكَ شِرْكٌ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: وَأَيْنَ هُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَدْعُو غَيْرَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ مِنْ مَيِّتٍ أَوْ غَيْرِ حَاضِرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُجِيبَ فِيمَا دُعِيَ إِلَيْهِ وَبِهِ؟!

إِنَّكَ لَتَسْمَعُ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ جَالِسًا، وَأَرَادَ أَنْ يَقُومَ يَقُولُ: يَا سَيِّد! فَيَدْعُو الْبَدَوِيَّ؛ فَهَذَا دُعَاءٌ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ مِنْ مَيِّتٍ صَارَ رِمَّةً فِي قَبْرِهِ!! فَهَذَا هُوَ الدُّعَاءُ.

الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغَاثَةُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا تُصْرَفُ إِلَّا للهِ جَلَّ وَعَلَا -وَهِيَ أَنْوَاعٌ كَمَا مَرَّ-، وَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ شَحِيحٍ بِدِينِهِ، حَرِيصٍ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ أَنْ يَعْرِفَ الْأَقْسَامَ، وَأَنْ يَفْهَمَهَا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَلَّا يَتَوَرَّطَ فِي أَمْرٍ يُؤَدِّي بِهِ وَيُفْضِي بِهِ إِلَىٰ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ -عِيَاذًا بِاللهِ وَلِيَاذًا بِجَنَابِهِ الرَّحِيمِ-.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إِنْ عَبَدْتَهُ، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إِنْ لَمْ تَعْبُدْهُ.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦] أَيْ: مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾: الضُّرُّ: كُلُّ مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ؛ مِنْ فَقْرٍ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

دُعَاءُ غَيْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شِرْكٌ أَكْبَرُ يُنَافِي التَّوْحِيدَ، وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدًا مِنْ دُونِهِ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ عَنْ إِيصَالِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ، وَالنَّهْيُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ؛ وَلَكِنْ خَاطَبَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ؛ لِيَتَأَسَّىٰ بِهِ غَيْرُهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ وَالتَّحْذِيرِ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُبَرَّأٌ مِنْهُ.

ثُمَّ بَيَّنَ -سُبْحَانَهُ- لِنَبِيِّهِ ﷺ: أَنَّهُ لَوْ دَعَا غَيْرَهُ لَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ قَالَ ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

فَدُعَاءُ الْأَمْوَاتِ وَالِاسْتِغَاثَةُ بِهِمْ شِرْكٌ أَكْبَرُ يُنَافِي التَّوْحِيدَ؛ فَالْمَيِّتُ قَدِ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَنْ يَدْعُو لَهُ؛ فَكَيْفَ يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ مِنْ دُونِ اللهِ؟!

هُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَنْفَعَ غَيْرَهُ، فَاللَّهُ ﷻ وَحْدَهُ

هُوَ كَاشِفُ الضُّرِّ، وَمَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الضُّرِّ لَا يَكْشِفُهُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَلَا أَحَدَ يَرُدُّ فَضْلَهُ.

قَالَ ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهَ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(١). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

فَاللهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمُلْكِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَدْعُوَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾**﴾ [يونس: ١٠٧].

فَعَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يُنْزِلَ حَوَائِجَهُ بِرَبِّهِ؛ فَهُوَ ﷻ الَّذِي يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِينَ، وَيُفَرِّجُ كُرُوبَ الْمَكْرُوبِينَ، قَالَ اللّهُ تَعَالىٰ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ**﴾ [غافر: ٦٠].

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾**﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿**فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ**﴾ أَيْ: فَاطْلُبُوهُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَشَدُّ ضَلَالًا ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾: لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِجَابَتِهِ بِإِعْطَائِهِ مَا طَلَبَ مِنْهُ، وَيَتَبَرَّؤُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُمْ زِيَادَةً عَلَىٰ عَجْزِهِمْ.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ﴾ أَيْ: الْمَدْعُوُّونَ ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ أَيْ: عَنْ دُعَاءِ مَنْ دَعَاهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾: لَا يَشْعُرُونَ بِدُعَاءِ مَنْ دَعَاهُمْ.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: جُمِعُوا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾: يَتَبَرَّؤُونَ مِمَّنْ دَعَاهُمْ، وَيُعَادُونَهُمْ ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٦].

فَالرِّزْقُ لَا يُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، **وَقَدْ نَفَىٰ اللهُ -سُبحَانَهُ- فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ صِفَةَ الرِّزْقِ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ، هِيَ:**

- **طَلَبُ الرِّزْقِ مِنْهُ وَحْدَهُ**؛ كَأَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عِلْمًا نَافِعًا، أَوْ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَالًا حَلَالًا، فَهُوَ -سُبحَانَهُ- الْمُتَفَرِّدُ بِالرِّزْقِ، قَالَ ﷻ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧].

- **وَالْأَمْرُ الثَّانِي الَّذِي أَمَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ عِبَادَهُ: عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**؛ فَلَا يَدْعُو غَيْرَهُ، قَالَ ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾.

- **وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّالِثُ فَهُوَ شُكْرُ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ**، قَالَ ﷻ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾

[العنكبوت:١٧] وَالشُّكْرُ يَكُونُ مُتَحَقِّقًا إِذَا اسْتَكْمَلَ أَرْكَانَهُ فَجِيءَ بِهِ بِالْقَلْبِ، وَبِاللِّسَانِ، وَبِالْجَوَارِحِ.

وَالشُّكْرُ لَابُدَّ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَرْكَانِ:

* أَنْ يَشْكُرَ بِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يَعْتَرِفَ بِقَلْبِهِ أَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنَ اللهِ.

* وَأَنْ يَشْكُرَ بِلِسَانِهِ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَحَدَّثَ بِالنِّعْمَةِ عَلَىٰ وَجْهِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ.

* **وَأَنْ يُصَرِّفَ النِّعْمَةَ فِيمَا جَعَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ**؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يَسْتَعْمِلَ النِّعَمَ فِي طَاعَةِ اللهِ؛ كَنِعْمَةِ الْجَوَارِحِ -مَثَلًا- مِنْ سَمْعٍ أَوْ بَصَرٍ، يَسْتَعْمِلُهَا فِيمَا يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ؛ كَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَيَحْفَظُهَا عَمَّا حَرَّمَ اللهُ؛ كَسَمَاعِ اللَّهْوِ الْمُحَرَّمِ وَالْغِيبَةِ.

وَأَمَّا مَنْ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَهُوَ أَضَلُّ الضَّالِّينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، فَمَنْ دَعَا غَيْرَهُ فَهُوَ أَضَلُّ الضَّالِّينَ؛ وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ، مِنْهَا:

* أَنَّ الْمَدْعُوَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ وَلَوْ دَعَاهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

* وَأَنَّهُمْ -يَعْنِي: الْمَدْعُوِّينَ- غَافِلُونَ عَنْ دُعَائِهِمْ.

* وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ لَهُمْ أَعْدَاءً.

* وَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ فِي ضَلَالِ مَنْ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ؛ فَكَيْفَ وَهِيَ مُجْتَمِعَةٌ!

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ، وَهُوَ الْمَكْرُوبُ الَّذِي مَسَّهُ الضُّرُّ، ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ: الْإِضَافَةُ بِمَعْنَىٰ: مِنْ، أَيْ: يَخْلُفُ كُلُّ قَرْنٍ الْقَرْنَ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْأَرْضِ.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: أَسِوَاهُ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ بِكُمْ، وَيُنْعِمُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ؟!

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أَيْ: تَذَكَّرُونَ تَذَكُّرًا قَلِيلًا فِي عَظَمَةِ اللهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ؛ فَلِذَلِكَ أَشْرَكْتُمْ بِهِ غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ.

فَلَا يُسْتَغَاثُ إِلَّا بِاللهِ ﷻ، وَقَدْ أَقَامَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْحُجَّةَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي بُطْلَانِ اتِّخَاذِهِمُ الشُّفَعَاءَ مِنْ دُونِهِ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ وَأَقَرُّوا بِهِ؛ مِنْ إِجَابَةِ اللهِ لَهُمْ إِذَا دَعَوْهُ فِي حَالِ الشِّدَّةِ، وَكَشْفِ السُّوءِ النَّازِلِ بِهِمْ، وَجَعْلِهِمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، فَإِذَا كَانَتْ آلِهَتُهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَكَيْفَ يَعْبُدُونَهَا مَعَ اللهِ؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟!! فَمَا أَقَلَّ تَنَكُّرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١].

﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾: اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ عَلَىٰ مَنْ يُشْرِكُ فِي الْعِبَادَةِ مَعَ اللهِ.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أَيْ: مَخْلُوقَاتٍ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ الْخَلْقِ، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾: وَهَؤُلَاءِ الْمَعْبُودُونَ مَخْلُوقُونَ مُحْدَثُونَ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ شَرِيكًا لِلْخَالِقِ بِحَالٍ.

فَاللهُ ﷻ هُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْمَالِكُ، هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الدُّعَاءَ، هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ الْإِجَابَةِ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؛ لِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢] أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الْمَعْبُودُونَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ نَصْرِ عَابِدِيهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩٢] أَيْ: وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الضُّرِّ؛ فَكَيْفَ يَدْفَعُونَ عَنْ غَيْرِهِمْ؟! وَكَيْفَ يَنْصُرُونَهُمْ؟!

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْأَصْنَامِ، وَغَيْرِهِمْ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣]: وَالْقِطْمِيرُ هُوَ: الْقِشْرَةُ الَّتِي عَلَىٰ نَوَاةِ التَّمْرَةِ؛ اللُّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ نَوَاةِ التَّمْرِ.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر:١٣-١٤]؛ لِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ، أَوْ مَلَائِكَةٌ مَشْغُولُونَ لِمَا خُلِقُوا لَهُ.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾: لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ مَا تَطْلُبُونَ مِنْهُمْ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: يُنْكِرُونَهُ، وَيَتَبَرَّؤُونَ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِمْ مَعَ اللهِ ﷻ.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أَيْ: وَلَا يُخْبِرُكَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَآلَاتِهَا ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣- ١٤] عَالِمٍ بِهَا، وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

الشِّرْكُ: تَعَلُّقٌ بِمَخْلُوقٍ عَاجِزٍ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ الضُّرَّ، وَلَا أَنْ يَجْلِبَ إِلَىٰ نَفْسِهِ النَّفْعَ، وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا حَيَاةً وَلَا مَوْتًا وَلَا نُشُورًا.

وَقَدْ وَبَّخَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَبَيَّنَ عَجْزَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ مِنْ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مَعْبُودَةً؛ وَذَلِكَ بِأَنَّهَا لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، وَمَنْ لَا يَخْلُقُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ [الأعراف: ١٩١]، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَ مَنْ يَدْعُوهَا، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩٢].

وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا مِنْ أَقْوَىٰ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وعَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ الْمُدَبِّرُ، الَّذِي يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُوَحِّدِينَ دُونَ سِوَاهُ، فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَىٰ بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَضَلَالِ أَهْلِهِ.

وتَعْجَبُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ، وَفِيهِمْ أَذْكِيَاءُ وَأَصْحَابُ عُقُولٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَمَسَّكُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِمَّا يُنَافِي الْعَقْلَ جُمْلَةً!

وَلَكِنْ هُنَاكَ أَسْبَابٌ، مِنْهَا: إِلْفُ مَا وَجَدُوهُ فَاعْتَقَدُوهُ؛ فَهُمْ لَا يُفَكِّرُونَ فِيهِ،

وَلَا يُرَاجِعُونَهُ، فَتَعْجَبُ مِنَ الْمُشْرِكِ الَّذِي يَأْتِي بِقِطْعَةِ الْخَشَبِ يُنَجِّرُهَا، ثُمَّ يُقِيمُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، يَدْعُوهَا، وَيَتَشَفَّعُ بِهَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ صَنَعَهَا بِيَدِهِ!! بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَتَّخِذُ الصَّنَمَ، فَيَأْتِي الثَّعْلَبُ فِي اللَّيْلِ فَيَبُولُ عَلَىٰ رَأْسِ الصَّنَمِ، فَيَنْتَبِهُ بَعْضَ الِانْتِبَاهِ فَيَقُولُ:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ وَلَا خَيْرَ فِي رَبٍّ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

بَلْ بَعْضُهُمْ كَانَ يَتَّخِذُ الصَّنَمَ مِنَ الْعَجْوَةِ، فَإِذَا جَاعَ أَكَلَهُ، فَيَأْكُلُ إِلَهَهُ!! فَيَتَّخِذُونَ هَذِهِ مَعْبُودَاتٍ وَآلِهَةً؛ فَأَيْنَ الْعُقُولُ؟!!

لَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ضَلَالَ هَؤُلَاءِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ حُجَّةً بَعْدَ حُجَّةٍ -كَمَا مَرَّ فِي الْآيَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ-، وَسَاقَ -أَيْضًا- الْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةَ عَلَىٰ بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَالرَّدِّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، فَأَخْبَرَ اللهُ ﷻ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ وَحْدَهُ، وَجَمِيعُ الْخَلْقِ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ؛ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ لِتَفَرُّدِهِ بِصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ كَالْمُلْكِ، وَسَمَاعِ الدُّعَاءِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْإِجَابَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ عَجْزِ تِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

* **عَدَمُ الْمُلْكِ**: إِذْ لَا تَمْلِكُ أَدْنَىٰ شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ حَقِيرًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾، وَهُوَ -كَمَا مَرَّ-: اللُّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ نَوَاةِ التَّمْرِ؛ فَهَؤُلَاءِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا.

* **وَأَيْضًا هُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُمْ**: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾.

* **وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَىٰ الِاسْتِجَابَةِ**؛ فَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهَا،

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

* **وَهَذِهِ الْمَعْبُودَاتُ تَتَبَرَّأُ مِنْ عَابِدِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:** ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

فَهَذِهِ الْمَعْبُودَاتُ تَأْتِي بِهَذِهِ الْأُمُورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَدَاوَةُ ظَاهِرَةٌ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدِلَّةٌ نَاصِعَةٌ عَلَىٰ بُطْلَانِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَإِثْبَاتِ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وَلَا يُخْبِرُنَا بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَآلَاتِهَا مِثْلُ خَبِيرٍ بِهَا؛ وَهُوَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

فَالْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ وَأَعْظِمْ بِهَا نِعْمَةً.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ - وَشُجَّ: الْجُرْحُ فِي الرَّأْسِ وَالْوَجْهِ خَاصَّةً-، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ -وَالرَّبَاعِيَةُ هِيَ: كُلُّ سِنٍّ بَعْدَ ثَنِيَّةٍ، وَلِلْإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ-، فَقَالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!**»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ»(٢) مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا** -أَيِ: اطْرُدْ وَأَبْعِدْ مِنْ رَحْمَتِكَ فُلَانًا وَفُلَانًا- بَعْدَمَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ** -أَيْ: أَجَابَ مَنْ حَمِدَهُ وَتَقَبَّلَهُ- **رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٩).

فَأَنْزَلَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الْآيَةَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الْمُرَادُ هَاهُنَا: لَيْسَ لَكَ إِلَّا دَعْوَتُهُمْ وَجِهَادُهُمْ.

فَالرَّسُولُ ﷺ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، شَرَّفَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالرِّسَالَةِ وَتَلَقِّي الْوَحْيِ، وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

وَقَدِ ابْتُلِيَ الرَّسُولُ ﷺ، وَطَالَهُ الضُّرُّ فِي جَسَدِهِ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ بَشَرٌ تَعْتَرِيهِ الْعَوَارِضُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ مَرَضٍ وَمَصَائِبَ وَجِرَاحٍ، كَمَا حَصَلَ لَهُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ عَلَىٰ أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَعْدَاءِ اللهِ، وَقَدْ أُصِيبَ ﷺ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ جَسَدِهِ؛ شُجَّ رَأْسُهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَقَالَ ﷺ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!**»، اسْتَبْعَدَ حُصُولَ الْفَوْزِ وَالسَّعَادَةِ لَهُمْ مَعَ فِعْلِهِمْ هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَدَعَا عَلَيْهِمْ؛ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَشْخَاصٍ مُعَيَّنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ كَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَهُ ﷺ، فَعَاتَبَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أَيْ: لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا دَعْوَتُهُمْ وَجِهَادُهُمْ.

وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَالْآيَةُ تُبَيِّنُ عَظِيمَ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ الضُّرَّ،

وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ فَلَا يَجُوزُ الْغُلُوُّ فِيهِ بِرَفْعِهِ فَوْقَ مَكَانَتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَهُ، فَيُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَغَيْرُهُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَابٍ أَوْلَىٰ!

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ!** أَوْ: كَلِمَةً نَحْوَهَا- **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «قَامَ» أَيْ: صَعِدَ عَلَىٰ الصَّفَا، «حِينَ أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]»: عَشِيرَةُ الرَّجُلِ: هُمْ بَنُو أَبِيهِ الْأَدْنَوْنَ، أَوْ قَبِيلَتُهُ، ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أَيْ: الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ مِنْهُمْ.

فَقَالَ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ!**»، وَالْمَعْشَرُ: الْجَمَاعَةُ «**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ**» أَيْ: خَلِّصُوهَا مِنَ الْعَذَابِ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَىٰ شَرَفِ النَّسَبِ.

«**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ**» أَيْ: لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ؛ رَفْعًا لِمَا قَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ أَنَّهُ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا بِشَفَاعَتِهِ ﷺ.

«**سَلِينِي مِنْ مَالِي**»: لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ اللهِ فَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ.

فَيُخْبِرُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَمَّا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَمَا أَمَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنْ يُنْذِرَ قَرَابَتَهُ؛ أَنَّهُ قَامَ مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ، فَنَادَىٰ قُرَيْشًا بِبُطُونِهَا، وَنَادَىٰ عَمَّهُ، وَعَمَّتَهُ، وَبِنْتَهُ، فَأَنْذَرَهُمْ نِذَارَةً خَاصَّةً، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُخَلِّصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَبَلَّغَهُمْ أَنَّهُ لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئًا إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا، فَمُجَرَّدُ قُرْبِهِمْ مِنْهُ غَيْرُ نَافِعٍ لَهُمْ بِدُونِ إِيمَانٍ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ:

* أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ إِلَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ إِلَّا مِنَ اللهِ؛ فَفِيهِ: الرَّدُّ عَلَىٰ عُبَّادِ الْقُبُورِ الَّذِينَ يَسْتَغِيثُونَ بِالْأَمْوَاتِ لِتَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ.

* **وَفِيهِ:** الرَّدُّ عَلَىٰ عُبَّادِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَتَعَلَّقُونَ بِالْمَخْلُوقِينَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِمُ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ.

* **فِي الْحَدِيثِ:** أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

* **وَفِيهِ:** دَلَالَةٌ عَلَىٰ مُسَارَعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ امْتِثَالِ أَمْرِ رَبِّهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ.

* **وَفِي الْحَدِيثِ:** أَنَّهُ لَا يُنَجِّي مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلَّا الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، لَا الِاعْتِمَادُ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الِانْتِسَابِ لِلْأَشْخَاصِ، وَأَنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ

أَهْلُ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الْقَرَابَةِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لَا تَنْفَعُ بِدُونِ إِيمَانٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَعَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ.

فَالنَّجَاةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالتَّوْحِيدِ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَىٰ دَعْوَةِ النَّاسِ جَمِيعًا؛ امْتِثَالًا لِقَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس:٢]، فَقَامَ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا.

وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِإِنْذَارِ قَرَابَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ، كَمَا قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ جَمَعَ ﷺ قُرَيْشًا قَائِلًا: «**اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»: خَلِّصُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُ ثَمَنُ النَّجَاةِ، لَا الِاعْتِمَادُ عَلَىٰ الْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ؛ فَإِنَّهَا لَا تُغْنِي مِنَ اللهِ شَيْئًا.

فَالرَّسُولُ نَفْسُهُ ﷺ لَا يُغْنِي عَنْ قَرَابَتِهِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، فَنَادَىٰ عَمَّهُ، وَعَمَّتَهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُخَلِّصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَمُجَرَّدُ قَرَابَتِهِمْ مِنْهُ لَا تَنْفَعُهُمْ، وَلَا تُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

ثُمَّ خَصَّ بِالنِّذَارَةِ مَنْ هِيَ بَضْعَةٌ مِنْهُ؛ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ، وَقَالَ لَهَا: «**سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ**»؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ عَنْهَا مَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَالِ، أَمَّا الْهِدَايَةُ، وَأَمَّا الْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ النَّارِ؛ فَلَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنَ اللهِ.

فَإِذَا كَانَ ﷺ لَا يَنْفَعُ عَمَّهُ، وَلَا عَمَّتَهُ، وَلَا ابْنَتَهُ؛ فَغَيْرُهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ!

وَهَذَا الْحَدِيثُ حُجَّةٌ عَلَىٰ مَنْ تَعَلَّقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَدَعَاهُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ لِيَشْفَعَ

لَهُ، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ الْكُرُوبَ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ ﷻ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَمَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ الْخَلْقَ نَزَّهَ الْخَالِقَ عَنِ الشُّرَكَاءِ، وَأَخْلَصَ الدِّينَ لَهُ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَىٰ اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا** ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟﴾ [سبأ: ٢٣] **لِلَّذِي قَالَ** ﴿ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- وَسُفْيَانُ هُوَ: ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ-، **فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ** -يَعْنِي: مُسْتَرِقَ السَّمْعِ-، **فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا**(٢)**، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ**».

يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ تَعْظِيمِ الْمَلَائِكَةِ لِكَلَامِ اللهِ، وَمَا يَعْتَرِيهِمْ مِنَ الْخَوْفِ، وَتَسَاؤُلِهِمْ عَمَّا قَالَ رَبُّهُمْ، وَإِجَابَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَمَا تَعْمَلُهُ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ يَخْتَطِفُونَ كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ فِي ذَلِكَ؛ لِتُلْقِيَهُ إِلَىٰ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ مِنَ النَّاسِ، وَمَا تُلَاقِيهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الرَّمْيِ بِالشُّهُبِ -حِينَئِذٍ-، وَأَنَّهُ قَدْ يَتَمَكَّنُ الشَّيْطَانُ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

(٢) في رواية: «**فَرُبَّما أدْرَكَ الشِّهابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أنْ يَرْمِيَ بها إلىٰ صاحِبِهِ فيُحْرِقَهُ**».

إِيصَالِ الْكَلِمَةِ الْمَسْمُوعَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَىٰ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ لِحِكْمَةٍ يعْلَمُهَا اللهُ؛ وَإِلَّا فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، فَيُزَادُ مَعَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ أَوِ الْآدَمِيِّ مِنْ سَاحِرٍ أَوْ كَاهِنٍ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ كَذْبَةً، وَتُذَاعُ كُلُّهَا فِي النَّاسِ، فَيُصَدِّقُونَهَا كُلَّهَا بِسَبَبِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الْمَسْمُوعَةِ مِنَ الصِّدْقِ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ اللهِ مَعَ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْقُوَّةِ؛ عُلِمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ صَرْفُ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَةِ لَهُمْ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ؟!

فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَالْأَنْبِيَاءَ، وَالصَّالِحِينَ، وَفِيهِ تَعْظِيمُ اللهِ -سُبْحَانَه-، أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: إِثْبَاتُ الْعُلُوِّ للهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَإِثْبَاتُ تَكَلُّمِهِ بِكَلَامٍ يُسْمَعُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: إِبْطَالُ السِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَإِنْ صَدَقَ الْكَاهِنُ وَالسَّاحِرُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْغَالِبِ الْكَثِيرِ، لَا بِالنَّادِرِ الْقَلِيلِ.(*).

عِبَادَ اللهِ! عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَنَا كَمَا فِي «التِّرْمِذِيِّ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ جَلَّوَعَلَا يَقُولُ: «**يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» (مُحَاضَرَات: ١٧، ١٨، ١٩)، الثُّلَاثَاءُ ٢٤ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٢-٧-٢٠١٤م.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٥٤٠) وَاللَّفْظُ لَهُ، وَأَحْمَدُ (١٣٤٩٣) مُخْتَصَرًا بِمَعْنَاهُ، وَصَحَّحَهُ =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ؛ أَلَّا نُقَدِّمَ عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَحَبَّةً، وَلَا عَلَىٰ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ خَوْفًا، وَلَا نَجْعَلَ الرَّجَاءَ مَوْصُولًا إِلَّا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَأَنْ نُنَزِّهَ أَلْسِنَتَنَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَلَا نَحْلِفُ إِلَّا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا نُقْسِمُ إِلَّا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ مِنَ النَّذْرِ إِلَّا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ.

لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نَخَافُ إِلَّا مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا نَصْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ لِغَيْرِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَأْتِ بِهَذَا الْأَصْلِ كَانَ مُشْرِكًا، وَإِذَا أَشْرَكَ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يَغْفِرُ لَهُ مَا أَشْرَكَ بِهِ فِي حَقِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَقَصَّرَ بِهِ -يَعْنِي: بِالشِّرْكِ- فِي حَقِّ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَحِينَئِذٍ لَا بُدَّ مِنَ الْعِقَابِ بِالنَّارِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُقِيمَنَا عَلَيْهِ.(*).

❀❀❀

=

الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٣٥٤٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مَقْطَعٌ بِعُنْوَان: «كَلَامٌ مِنَ الْقَلْبِ عَنِ التَّوْحِيدِ».

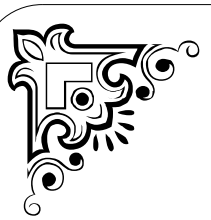

الْإِنْسَانُ وَالْبِيئَةُ.. وَتَسْبِيحُ الْكَائِنَاتِ اللهَ

لَقَدْ بَيَّنَ لَنَا الْقُرْآنُ مَعَانِيَ جَلِيلَةً وَرُؤَى فَرِيدَةً فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَجَمَادٍ؛ فَيُوَضِّحُ أَنَّ الْكَوْنَ مِنْ حَوْلِهِ يُشَارِكُ الْعَابِدِينَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي تَسْبِيحِهِ للهِ جَلَّوَعَلَا، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤].

اللهُ جَلَّوَعَلَا تُنَزِّهُهُ وَتُقَدِّسُهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ؛ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْإِنْسِ، وَالْجِنِّ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا يُنَزِّهُ اللهَ -تَعَالَىٰ- تَنْزِيهًا مَقْرُونًا بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ -سُبْحَانَهُ-؛ وَلَكِنْ لَا تَفْهَمُونَ تَسْبِيحَهُمْ، مَا عَدَا مَنْ يُسَبِّحُ بِلُغَتِكُمْ وَلِسَانِكُمْ.(*).

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الإسراء: ٤٤].

أَلَمْ تَعْلَمْ -أَيُّهَا الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ- عِلْمًا وَاضِحًا جَلِيًّا مُشَابِهًا لِلرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- يَسْجُدُ لَهُ خَاضِعًا مُنْقَادًا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ سُجُودًا إِرَادِيًّا مُلَبِّينَ فِيهِ دَوَاعِيَ فِطْرَتِهِمْ، وَسُجُودًا غَيْرَ إِرَادِيٍّ بِخُضُوعِ ذَوَاتِهِمْ لِمَا يُجْرِيهِ اللهُ فِيهَا بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَالنُّجُومُ، وَالْجِبَالُ، وَالشَّجَرُ، وَالدَّوَابُّ كُلُّهَا سَاجِدَةٌ للهِ، وَخَاضِعَةٌ خُضُوعًا تَامًّا بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ سَاجِدُونَ سُجُودًا اخْتِيَارِيًّا، حَقَّ لَهُمُ الثَّوَابُ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنْقَادُونَ للهِ -تَعَالَىٰ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ غَيْرُ سَاجِدِينَ للهِ سُجُودًا اخْتِيَارِيًّا، حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ بِكُفْرِهِمْ وَتَرْكِهِمُ السُّجُودَ.

وَمَا أَعَزَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ بِمِثْلِ سُجُودِهِ للهِ -تَعَالَىٰ-، وَطَاعَتِهِ لَهُ، وَمَا أَذَلَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ بِمِثْلِ إِعْرَاضِهِ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ.

وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالذِّلَّةِ وَالْهَوَانِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ نَتِيجَةَ اخْتِيَارِهِمْ فِي ظُرُوفِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ مَنْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْكَرَامَةِ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ وَفْقَ حِكْمَتِهِ.(*).

وَمُكَوِّنَاتُ الْكَوْنِ كَالنُّجُومِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِهَا تُرَافِقُ الْمُوَحِّدَ فِي خُضُوعِهِ وَسُجُودِهِ للهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الحج: ١٨].

«أَيْ: نُجُومُ السَّمَاءِ وَأَشْجَارُ الْأَرْضِ تَعْرِفُ رَبَّهَا، وَتَسْجُدُ لَهُ، وَتُطِيعُ وَتَخْشَعُ وَتَنْقَادُ لِمَا سَخَّرَهَا لَهُ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ وَمَنَافِعِهِمْ»(١).

وَأَمْثَالُ هَذِهِ النُّصُوصِ يَنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا عَلَىٰ حَسَبِ مَا تَدُلُّ عَلَىٰ مَعَانِيهَا أَلْفَاظُهَا، وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ فَمُفَوَّضَةٌ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ النَّجْمَ وَالشَّجَرَ يَسْجُدَانِ سُجُودًا حَقِيقِيًّا، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّجِهَ نَحْوَ خَالِقِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ خَاصًّا بِالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ، وَإِنَّمَا اكْتَفَىٰ بِذِكْرِ الْبَعْضِ هُنَا لِيُدَلَّ بِهِ عَلَىٰ الْكُلِّ.(*).

وَيَتَّضِحُ تَفَاعُلُ وَمُشَارَكَةُ الْكَوْنِ الْإِنْسَانَ الْمُوَحِّدَ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللهِ وَالِانْقِيَادِ لَهُ -سُبْحَانَهُ- فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

«﴿ثُمَّ﴾: بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أَيْ: قَصَدَ ﴿إِلَى﴾: خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾: قَدْ ثَارَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ، ﴿فَقَالَ لَهَا﴾: وَلَمَّا كَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ يُوهِمُ الِاخْتِصَاصَ عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَيِ: انْقَادَا لِأَمْرِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ، فَلَا بُدَّ مِنْ نُفُوذِهِ، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾: لَيْسَ لَنَا إِرَادَةٌ تُخَالِفُ إِرَادَتَكَ»(٣).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٧٦-٩٧٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الرحمن: ٦].

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٧٧).

إِنَّ الْمُسْلِمَ يَتَعَامَلُ مَعَ مُكَوِّنَاتِ الْبِيئَةِ لَا بِاعْتِبَارِهَا وَسَطًا يَعِيشُ فِيهِ فَقَطْ، بَلْ بِاعْتِبَارِهَا كَائِنَاتٍ تَسِيرُ مَعَهُ وَتُرَافِقُهُ؛ لِتَتَكَوَّنَ مِنْهُمَا مَنْظُومَةٌ مُتَكَامِلَةٌ فِي الْخُضُوعِ وَالْعِبَادَةِ لِلهِ -تَعَالَى-، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

«﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أَيْ: لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ فَتَبْكِي عَلَىٰ فَقْدِهِمْ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبَدُوا اللهَ فِيهَا فَقَدَتْهُمْ؛ فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا أَلَّا يُنْظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا؛ لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ، وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ»(١).

«﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾: لَمَّا أَتْلَفَهُمُ اللهُ وَأَهْلَكَهُمْ لَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، أَيْ: لَمْ يُحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُؤْسَ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ، بَلْ كُلٌّ اسْتَبْشَرَ بِهَلَاكِهِمْ وَتَلَفِهِمْ حَتَّىٰ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ؛ لِأَنَّهُمْ مَا خَلَّفُوا مِنْ آثَارِهِمْ إِلَّا مَا يُسَوِّدُ وُجُوهَهُمْ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةَ وَالْمَقْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: مُمْهَلِينَ عَنِ الْعُقُوبَةِ، بَلِ اصْطَلَمَتْهُمْ فِي الْحَالِ»(٢).

❀❀❀

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩١١).

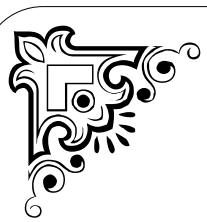

تَسْخِيرُ اللهِ الْبِيئَةَ وَمُكَوِّنَاتِهَا لِلْإِنْسَانِ

لَقَدْ سَخَّرَ اللهُ مُكَوِّنَاتِ الْبِيئَةِ وَعَنَاصِرَ الْكَوْنِ الَّتِي صَنَعَهَا فَأَتْقَنَ صُنْعَهَا لِمَخْلُوقِهِ الَّذِي كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ، وَجَعَلَهَا مُهَيَّأَةً لَهُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مُنْقَادَةً سَهْلَةً مُطَوَّعَةً، تَحْرُثُونَهَا وَتَزْرَعُونَهَا، وَتَسْتَخْرِجُونَ كُنُوزَهَا، وَتَنْتَفِعُونَ مِنْ طَاقَاتِهَا وَخَصَائِصِ عَنَاصِرِهَا، فَامْشُوا فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا وَنَوَاحِيهَا مَشْيًا رَفِيقًا لِتَحْصِيلِ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَكُلُوا مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَاكْتَسِبُوا الرِّزْقَ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.(*).

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الملك: ١٠].

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْمُخْتَلِطِ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، أَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَذَلَّلَ لَكُمُ السُّفُنَ الْجَارِيَةَ عَلَىٰ الْمَاءِ وَفْقِ نِظَامِ الْطَفْوِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ فِي كَوْنِهِ؛ لِأَجْلِ الِانْتِفَاعِ بِهَا فِي جَلْبِ الرِّزْقِ مِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ، وَذَلَّلَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ تَشْرَبُونَ مِنْهَا وَتَسْقُونَ زَرْعَكُمْ، وَأَشْجَارَكُمْ، وَأَنْعَامَكُمْ، وَدَوَابَّكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخْرَىٰ.

وَذَلَّلَ اللهُ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ تَجْرِيَانِ دَائِمًا فِيمَا يَعُودُ إِلَىٰ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، لَا يَفْتُرَانِ عَنْ حَرَكَتِهِمَا مِنَ انْقِضَاءِ عُمُرِ الدُّنْيَا وَذَهَابِهَا، وَذَلَّلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَعَاقَبَانِ فِي الظُّلْمَةِ وَالضِّيَاءِ، وَالنُّقْصَانِ وَالزِّيَادَةِ، تَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ وَتَسْتَرِيحُوا، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فِي النَّهَارِ وَتُدَبِّرُوا مَعَايَشَكُمْ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: ٨٠-٨١].

اللهُ -سُبْحَانَهُ- جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الَّتِي هِيَ مِنَ الْحَجَرِ رَاحَةً وَاسْتِقْرَارًا

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[إبراهيم: ٣٢-٣٣].

وَمَسْكَنًا تَسْكُنُونَهُ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ فِي الْحَضَرِ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ -وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ- خِيَامًا يَخِفُّ عَلَيْكُمْ حَمْلُهَا فِي يَوْمِ سَيْرِكُمْ وَرَحِيلِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ، وَتَخِفُّ عَلَيْكُمْ -أَيْضًا- فِي إِقَامَتِكُمْ وَحَضَرِكُمْ، وَلَا تَثْقُلُ عَلَيْكُمْ فِي الْحَالَيْنِ.

وَتَتَّخِذُونَ مِنْ أَصْوَافِ الضَّأْنِ وَأَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْعَارِ الْمَعْزِ أَثَاثًا لِبُيُوتِكُمْ مِنَ الْفُرُشِ وَالْأَكْسِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَبَلَاغًا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ إِلَىٰ حِينِ الْمَوْتِ.

اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ طَهَارَةِ جُلُودِ الْأَنْعَامِ الَّتِي حَلَّ أَكْلُهَا، وَطَهَارَةِ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا إِذَا جُزَّ فِي الْحَيَاةِ، وَكَذَلِكَ جِلْدُ الْمَيْتَةِ مِنَ الْأَنْعَامِ إِذَا دُبِغَ.

وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ ظِلَالِ الْأَبْنِيَةِ وَالْجُدْرَانِ وَالْأَشْجَارِ مَا تَسْتَظِلُّونَ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِدَارِ مَا تَسْتَكِنُّونَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، كَالْأَسْرَابِ وَالْمَغَارَاتِ وَالْكُهُوفِ وَنَحْوِهَا، وَجَعَلَ لَكُمْ قُمُصًا وَثِيَابًا مِنَ الْقُطْنِ وَالصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، تَمْنَعُكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَدُرُوعًا تَقِيكُمْ فِي الْحَرْبِ بَأْسَ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، وَلَا تَصِلُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ إِلَىٰ جَسَدِ مَنْ يُضْرَبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا.

كَذَلِكَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِيمَا مَضَىٰ، سَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ؛ فَيُمَكِّنُكُمْ مِنْ صُنْعِ أَشْيَاءَ لَا حَصَرَ لَهَا فِي الْعُصُورِ الْقَادِمَةِ بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيلِ، مِمَّا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ صِنَاعَاتٍ مُذْهِلَةٍ بِإِلْهَامِ اللهِ لَهُمْ؛ رَغْبَةً فِي أَنْ

تُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي أَنْ تُسْلِمُوا مُنْقَادِينَ لَهُ فِي شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ.(*).

وَحَثَّنَا -سُبْحَانَهُ- مُقَابِلَ هَذَا التَّسْخِيرِ بِشُكْرِ نِعْمَةِ رَبِّنَا عَلَيْهَا، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: ٣٦]؛ رَغْبَةً أَنْ تَشْكُرُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [النحل: ٨٠-٨١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الحج: ٣٦].

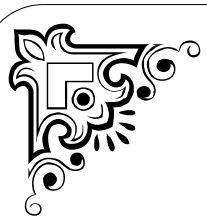

تَعَالِيمُ الشَّرِيعَةِ وَقَضَايَا الْبِيئَةِ

لَقَدْ أَرْشَدَتْنَا شَرِيعَتُنَا الْغَرَّاءُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْآدَابِ الَّتِي يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِهَا حِيَالَ بِيئَتِنَا وَمَا يُحِيطُ بِنَا مِنْ كَائِنَاتٍ، مِنْهَا:

* **الْحِرْصُ عَلَى عِمَارَةِ الْأَرْضِ لِلنَّفْعِ الْعَامِّ**؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي بُرَيْدَةَ يَقُولُ: «جَاءَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا رُطَبٌ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا سَلْمَانُ! مَا هَذَا؟!**».

فَقَالَ: «صَدَقَةٌ عَلَيْكَ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِكَ».

فَقَالَ: «**ارْفَعْهَا؛ فَإِنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**».

قَالَ: «فَرَفَعَهَا، فَجَاءَ الْغَدَ بِمِثْلِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟!**».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

فَقَالَ: «هَدِيَّةٌ لَكَ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**ابْسُطُوا**».

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ الْخَاتَمِ عَلَىٰ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ، وَكَانَ لِلْيَهُودِ فَاشْتَرَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا وَكَذَا دِرْهَمًا عَلَىٰ أَنْ يَغْرِسَ لَهُمْ نَخْلًا، فَيَعْمَلَ سَلْمَانُ فِيهِ، حَتَّىٰ تُطْعِمَ، **فَغَرَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّخلَ إلا نَخْلَةً وَاحِدَةً**، غَرَسَهَا عُمَرُ، فَحَمَلَتِ النَّخْلُ مِنْ عَامِهَا، وَلَمْ تَحْمِلْ نَخْلَةٌ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا شَأْنُ هَذِهِ النَّخْلَةِ؟!**».

فَقَالَ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا غَرَسْتُهَا».

فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَغَرَسَهَا، فَحَمَلَتْ مِنْ عَامِهَا»(١). هَذَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «مَعَانِي الْآثَارِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ»، وَفِي «الدَّلَائِلِ»، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: «رِجَالُهُ ثِقَاتٌ»، وَالْحَدِيثُ حَسَّنَهُ الشَّيْخُ نَاصِرٌ رَحِمَهُ اللهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**ابْسُطُوا**»؛ دَفْعًا لِوَهْمِهِمْ أَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِهِ ﷺ.. ابْسُطُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَائِدَةِ، وَكُلُوا مِنْهَا.

أَوِ: «**ابْسُطُوا**» بِمَعْنَىٰ: النَّشْرِ، أَيِ: انْشُرُوا الطَّعَامَ فِي الْمَجْلِسِ بِحَيْثُ يَصِلُ إِلَىٰ كُلِّ يَدٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٧)، والبزار (٤٤٠٧)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية (١٨).

أَوِ: انْبَسِطُوا مَعَ سَلْمَانَ وَاسْتَبْشِرُوا.

وَقَدْ تَكُونُ هَدِيَّةُ سَلْمَانَ إِنَّمَا كَانَتْ فِي لُفَافَةٍ، فَأَمَرَ بِبَسْطِهَا ﷺ.

«عَلَىٰ أَنْ يَغْرِسَ لَهُمْ نَخْلًا، فَيَعْمَلَ سَلْمَانُ فِيهِ، حَتَّىٰ تُطْعِمَ» يَعْنِي: حَتَّىٰ يَأْتِيَ النَّخْلُ بِالثِّمَارِ.

وَالشَّاهِدُ فِي الْحَدِيثِ -وَكُلُّهُ شَاهِدٌ-: «فَغَرَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّخلَ إِلا نَخْلَةً وَاحِدَةً».(*).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»(٢). وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ.

وَ «**فَسِيلَةٌ**»: هِيَ النَّخْلَةُ الصَّغِيرَةُ.

هَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَىٰ غَرْسِ الْأَشْجَارِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ؛ لِتَبْقَىٰ هَذِهِ الدَّارُ عَامِرَةً إِلَىٰ آخِرِ أَمَدِهَا الْمَحْدُودِ الْمَعْلُومِ عِنْدَ خَالِقِهَا، **فَكَمَا غَرَسَ لَكَ**

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الشَّمَائِلِ الْمُحَمَّدِيَّةِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ)، الْخَمِيسُ ٣٠ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٢٨هـ| ١٧-٥-٢٠٠٧م.

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ (٢١٨١)، وَأَحْمَدُ (١٢٩٠٢) (١٢٩٨١)، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ (١٢١٦)، وَالْبَزَّارُ (٧٤٠٨)، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْخَلَّالِ فِي «الْحَثِّ عَلَىٰ التِّجَارَةِ» (٧٤)، وَابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي «الْمُعْجَمِ» (١٧٩)، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (٦/ ٧٥) (١٢٠٨)، مِنْ طَرِيقِ: هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، بِهِ.
وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (٩).

غَيْرُكَ؛ فَانْتَفَعْتَ بِهِ، فَاغْرِسْ أَنْتَ لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَكَ؛ لِيَنْتَفِعَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا صُبَابَةٌ، وَذَلِكَ بِهَذَا الْقَصْدِ لَا يُنَافِي الزُّهْدَ وَالتَّقَلُّلَ مِنَ الدُّنْيَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ أَحَادِيثَ فِي اسْتِثْمَارِ الْأَرْضِ وَزَرْعِهَا، وَالْحَثِّ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ الْحَضِّ عَلَىٰ الِاسْتِثْمَارِ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعَنَا؛ فَإِنَّ فِيهِ تَرْغِيبًا عَظِيمًا عَلَىٰ اغْتِنَامِ آخِرِ فُرْصَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ زَرْعِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَيُجْرَىٰ لَهُ أَجْرُهُ، وَتُكْتَبُ لَهُ صَدَقَتُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَوْلُهُ: «**فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»: وَهَذَا -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- يَتَطَلَّبُ زَمَانًا مَمْدُودًا؛ لِكَيْ يَتَحَصَّلَ الْمَرْءُ عَلَىٰ نَتِيجَتِهِ وعَائِدِهِ؛ لِأَنَّ النَّخْلَةَ يَسْتَمِرُّ نُمُوُّهَا حَتَّىٰ إِثْمَارِهَا سَنَواتٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**».

مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا يَقِينًا -حِينَئِذٍ-، وَلَكِنَّهُ ﷺ يَحُثُّ عَلَىٰ غَرْسِ الْأَشْجَارِ وَحَفْرِ الْأَنْهَارِ، وَعَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّافِعِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَإِنْ ظَهَرَتْ نَتَائِجُهُ وَعَوَاقِبُهُ عَلَىٰ الْمَدَىٰ الْبَعِيدِ، وَكَانَتْ نَتَائِجُهُ وَثِمَارُهُ بَطِيئَةً جِدًّا.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: التَّرْغِيبُ الْعَظِيمُ عَلَىٰ اغْتِنَامِ آخِرِ فُرْصَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ زَرْعِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَيُجْرَىٰ لَهُ أَجْرُهُ وَتُكْتَبُ لَهُ صَدَقَتُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْحَثُّ عَلَىٰ الطَّاعَةِ إِلَىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِن: «شَرْحُ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (حَدِيث: ٤٧٩، ص: ٢١٢٥ - =

*** وَمِنْ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْبِيئَةِ وَمُكَوِّنَاتِهَا: الْحَثُّ عَلَى النَّظَرِ فِي الْآفَاقِ، وَالْبَحْثِ تَحْتَ الثَّرَى، وَالتَّرَقِّي فِي الْعُلُومِ؛ لِتَرْقِيَةِ الْحَيَاةِ وَتَيْسِيرِهَا؛** فَإِنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ يَأْمُرُنَا بِأَنْ نَعْبُدَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ نَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ فِي الْآفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ وَفِيمَا بَثَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي تَضَاعِيفِ هَذَا الْكَوْنِ مِنَ الْآيَاتِ؛ لِكَيْ نَضَعَ أَيْدِينَا عَلَىٰ الْأَسْرَارِ الَّتِي تَرْتَقِي بِهَا الْحَيَاةُ.

فَجَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَرْقِيَةِ الْإِنْسَانِ فِيمَا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عِبَادَةً للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَهَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ هُوَ دِينُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي أَكْمَلَهُ وَرَضِيَهُ لِخَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، وَهُوَ يَحْمِلُ فِي آيَاتِهِ وَتَضَاعِيفِهِ الْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ صِدْقِ مَنْ أَتَىٰ بِهِ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِ.

دِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ يَحُضُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ التَّرَقِّي فِي الْعُلُومِ، وَفِي النَّظَرِ فِي آفَاقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَلَىٰ النَّظَرِ فِي الْأَنْفُسِ، بَلْ وَعَلَىٰ النَّظَرِ فِيمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ، وَهُوَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَنْ وَصَلَ مِمَّنْ نَظَرُوا فِي أَمْثَالِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي حَدَّدَهُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ مَا تَحْتَ الثَّرَىٰ، فَاسْتَخْرَجُوا الْمَعَادِنَ، وَاسْتَخْرَجُوا تِلْكَ الْمَادَّةَ الَّتِي صَارَتْ طَاقَةً لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الْعَالَمُ الْيَوْمَ.

وَكُلُّ ذَلِكَ أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ إِشَارَةً مُجْمَلَةً ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: ٦].

=

.(٢١٢٨

فَالْمُسْلِمُونَ لَمَّا أَخَذُوا بِتَعَالِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَقَدَّمُوا حَتَّىٰ مَلَكُوا الْعَالَمَ الْقَدِيمَ كُلَّهُ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَأَيَّدَهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْحَقَائِقِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ وَحَقِيقَةِ مَا جَاؤُوا بِهِ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةُ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ أَيْضًا الْمِيزَانَ الَّذِي هُوَ الْعَدْلُ وَمَا يُعْرَفُ بِهِ الْعَدْلُ مِنْ أُصُولِ الْعَدْلِ وَفُرُوعِهِ، وَذَلِكَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ إِذَا عَمِلُوا بِهَا فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَجَمِيعِ أُمُورِهِمْ.

فَمَتَىٰ عَمِلُوا بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ صَلَحَتْ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهُمْ.

وَأَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ أَنْزَلَ الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، فَخَصَّ مَنَافِعَهُ فِي أُمُورِ الْحَرْبِ، ثُمَّ عَمَّمَهَا فِي سَائِرِ الْأُمُورِ، فَالْحَدِيدُ أَنْزَلَهُ اللهُ لِهَذِهِ الْمَنَافِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ إِلَّا النَّادِرَ مِنْهَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ الْحَدِيدِ، وَقَدْ سَاقَهَا اللهُ فِي سِيَاقِ الِامْتِنَانِ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِهَا، وَمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ؛ الْأَمْرُ بِاسْتِخْرَاجِ هَذِهِ الْمَنَافِعِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي تَعَلُّمَ الْفُنُونِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَصِنَاعَةِ الْأَسْلِحَةِ

وَتَوَابِعِهَا، وَالْمَرَاكِبِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْبَرِيَّةِ وَالْهَوَائِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعِبَادُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]».

«هَذَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ يَحُثُّ عَلَىٰ الرُّقِيِّ الصَّحِيحِ وَالْقُوَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ».(*).

*** وَمِنْ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ -أَيْضًا- فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْبِيئَةِ: الِاجْتِهَادُ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَوَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: ٦٥].

وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ وَالزُّرُوعِ بَعْدَ يَبَسِهَا وَجَدْبِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.(*/٢).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ- مِن: «شَرْحِ الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي أَنَّ الْعُلُومَ وَالْأَعْمَالَ النَّافِعَةَ الْعَصْرِيَّةَ دَاخِلَةٌ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ» - الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ - السَّبْتُ ١٤ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ١٩-١٠-٢٠١٣م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [النحل: ٦٥].

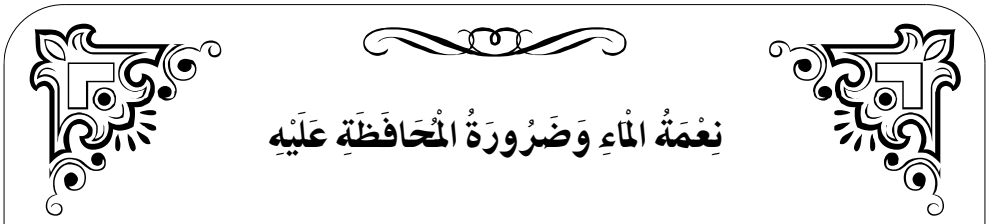

نِعْمَةُ الْمَاءِ وَضَرُورَةُ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ

اعْلَمْ أَنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، مِنَ الْأَكْلِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَسْكَنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُعَدُّ.

فَالْأَكْلُ وَالشَّرَابُ عَلَيْنَا فِيهِمَا نِعَمٌ سَابِقَةٌ وَلَاحِقَةٌ.

أَمَّا السَّابِقَةُ: فَإِنَّ هَذَا الْمَاءَ الَّذِي نَشْرَبُهُ مَا جَاءَ بِحَوْلِنَا وَلَا بِقُوَّتِنَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٦٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ عَلَىٰ السَّوَاءِ.

وَالطَّعَامُ الَّذِي نَأْكُلُهُ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٥].

فَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي زَرَعَهُ، وَنَمَّاهُ حَتَّىٰ تَكَامَلَ، وَيَسَّرَ لَنَا الْأَسْبَابَ الَّتِي تُيَسِّرُ جَنْيَهُ، وَحَصَادَهُ، ثُمَّ طَحْنَهُ وَطَبْخَهُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ لَا يُقَدَّمُ الطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَإِلَّا وَفِيهِ ثَلَاثُمِئَةٍ وَسِتُّونَ نِعْمَةً، هَذَا الَّذِي يُدْرَكُ، فَكَيْفَ بِالَّذِي لَا يُدْرَكُ؟!!

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نِعَمٌ عِنْدَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَعِنْدَمَا تَأْكُلُهُ عَلَىٰ جُوعٍ مَاذَا تَكُونُ لَذَّتُهُ؟

وَعِنْدَمَا تَطْعَمُهُ فِي فَمِكَ تَجِدُ لَذَّةً، وَعِنْدَمَا يَمْشِي فِي الْأَمْعَاءِ لَا تَجِدُ تَعَبًا فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ غُدَدًا تُفْرِزُ أَشْيَاءَ تُلَيِّنُ هَذَا الطَّعَامَ وَتُخَفِّفُهُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لَهُ قَنَوَاتٍ يَذْهَبُ مَعَهَا الْمَاءُ، وَهُنَاكَ عُرُوقٌ شَارِعَةٌ فِي هَذِهِ الْأَمْعَاءِ تُفَرِّقُ الدَّمَ عَلَىٰ الْجِسْمِ، فَأَيْنَ تُوَصِّلُهُ؟

تُوَصِّلُهُ إِلَىٰ الْقَلْبِ.

كُلُّ هَذَا وَنَحْنُ لَا نُحِسُّ بِهَذَا الشَّيْءِ؛ وَإِلَّا فَالْقَلْبُ يُصْدِرُ نَبْضَاتٍ، كُلُّ نَبْضَةٍ تَأْخُذُ شَيْئًا، وَالنَّبْضَةُ الْأُخْرَىٰ تُخْرِجُ شَيْئًا مِنْ هَذَا الدَّمِ -يَعْنِي مَا يَرِدُ إِلَىٰ الْقَلْبِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ-، وَمَعَ ذَلِكَ يَذْهَبُ هَذَا الدَّمُ إِلَىٰ جَمِيعِ أَجْزَاءِ الْجِسْمِ بِشُعَيْرَاتٍ دَقِيقَةٍ مُنَظَّمَةٍ مُرَتَّبَةٍ عَلَىٰ حَسَبِ حِكْمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ.

الْمُهِمُّ مِنْ كُلِّ هَذَا أَنْ نُبَيِّنَ بِهِ أَنَّ للهِ عَلَيْنَا نِعَمًا مَادِيَّةً بَدَنِيَّةً فِي هَذَا الطَّعَامِ،

سَابِقَةً عَلَىٰ وُصُولِهِ إِلَيْنَا وَلَاحِقَةً.

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ نِعَمًا دِينِيَّةً تَتَقَدَّمُ هَذَا الطَّعَامَ وَتَلْحَقُهُ:

فَتُسَمِّي عِنْدَ الْأَكْلِ، وَتَحْمَدُ إِذَا فَرَغْتَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَرِضَا اللهِ غَايَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَمَنْ يُحَصِّلُ رِضَا اللهِ ﷻ؟

هَذِهِ غَايَةٌ عَالِيَةٌ!

فَنَحْنُ نَتَمَتَّعُ بِنِعَمِهِ، فَإِذَا حَمِدْنَاهُ عَلَيْهَا رَضِيَ عَنَّا، وَهُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ بِهَا أَوَّلًا.

وَهَذِهِ النِّعْمَةُ -وَهِيَ رِضَا اللهِ- أَكْبَرُ مِنْ نِعْمَةِ الْبَدَنِ.

فَتَأَمَّلْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْكَ، فَهِيَ سَابِغَةٌ وَشَامِلَةٌ وَاسِعَةٌ، دِينِيَّةٌ وَدُنْيَوِيَّةٌ، وَبِهَذَا تَعْرِفُ صِدْقَ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

فَبَيَّنَ اللهُ حَالَ الْإِنْسَانِ وَشَأْنَ الرَّبِّ عِنْدَ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، فَحَالُ الْعَبْدِ: الظُّلْمُ وَالْكُفْرُ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، ظُلْمُ نَفْسِهِ وَكُفْرُ نِعْمَةِ رَبِّهِ، وَشَأْنُ الرَّبِّ ﷻ: أَنْ يُقَابِلَ هَذَا الظُّلْمَ وَهَذَا الْكُفْرَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ -وَللهِ الْحَمْدُ رَبٌّ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَدُودٌ-.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ «الشَّرْحِ الْمُمْتِعِ شَرْحُ زَادِ الْمُسْتَقْنِعِ - كِتَابُ الطَّهَارَةِ» - الْمُحَاضَرَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ - الثُّلَاثَاءُ ٢ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٠هـ/ ٣٠-١٢-٢٠٠٨م.

إِنَّ نِعْمَةَ الْمَاءِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بِهَا عَلَيْنَا؛ نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللهِ.(*).

۞ **وَلِلْمَاءِ ثَمَرَاتٌ عَظِيمَةٌ، وَفَوَائِدُ نَافِعَةٌ جَلِيلَةٌ:**

* **مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ الْمَاءِ: أَنَّ اللهَ جَعَلَهُ شَرَابًا لِلْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ: قَالَ رَبُّنَا** جَلَّوَعَلَا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ [النحل: ١٠].

اللهُ الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْوًا طَهُورًا نَافِعًا، لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ.(*/٢).

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ نِعْمَةِ الْمَاءِ: أَنَّهُ سَبَبٌ فِي خُرُوجِ النَّبَاتِ وَالثِّمَارِ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ: فَقَدْ قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْمُخْتَلِطِ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، أَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَذَلَّلَ لَكُمُ السُّفُنَ الْجَارِيَةَ عَلَىٰ الْمَاءِ وَفْقَ نِظَامِ الطَّفْوِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ فِي كَوْنِهِ؛ لِأَجْلِ الِانْتِفَاعِ بِهَا فِي جَلْبِ الرِّزْقِ مِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ.

وَذَلَّلَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ تَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَتَسْقُونَ زَرْعَكُمْ، وَأَشْجَارَكُمْ، وَأَنْعَامَكُمْ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «هَلْ يَجِفُّ النَّهْرُ حَقًّا؟!!» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَة ١٤٣١هـ/ ٢٨-٥-٢٠١٠م، بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ.

(*/ ٢) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [سورة النحل: ١٠].

وَدَوَابَّكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخْرَىٰ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠- ١١].

اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْوًا طَهُورًا نَافِعًا، لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ.

وَلَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَجَرٌ يَكُونُ الْمَاءُ سَبَبًا فِي نَبَاتِهِ وَنَمَائِهِ، فَأَنْتُمْ فِيهِ تُطْلِقُونَ أَنْعَامَكُمُ السَّائِمَةَ، تَرْعَىٰ مِنْ أَشْجَارِ الْأَرْضِ وَنَبَاتِهَا.

يُنْبِتُ اللهُ لَكُمْ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْحَبَّ الَّذِي يُقْتَاتُ بِهِ، وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ، وَمِنْ سَائِرِ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ظَاهِرَةِ الْمَطَرِ وَمَا فِيهِ مِنْ شَرَابٍ لِلنَّاسِ، وَإِنْبَاتِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ لَعَلَامَةً دَالَّةً عَلَىٰ قُدْرَتِنَا، وَشُمُولِ عِلْمِنَا، وَعَظِيمِ حِكْمَتِنَا، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي دَلَائِلِ قُدْرَتِنَا، وَعَظِيمِ نِعَمِنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا.(*/٢).

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ نِعْمَةِ الْمَاءِ: أَنَّ اللهَ أَحْيَا بِهِ كُلَّ شَيْءٍ:** فَقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]: وَأَنْزَلْنَا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَخْرَجْنَا النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ.(*/٣).

(*) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [سورة إبراهيم: ٣٢].

(*/ ٢) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النحل: ١٠- ١١].

(*/ ٣) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [سورة الأنبياء: ٣٠].

*** وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْمَاءِ فِي الْحَيَاةِ: أَنَّ اللهَ جَعَلَ بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ: قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥].

وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ وَالزُّرُوعِ بَعْدَ يَبَسِهَا وَجَدْبِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةً وَاضِحَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.(*).

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وَتَرَىٰ -أَيُّهَا النَّاظِرُ الْمُتَأَمِّلُ- بِدَوَامٍ وَتَجَدُّدٍ الْأَرْضَ يَابِسَةً مَيِّتَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَطَرَ تَحَرَّكَ تُرَابُهَا؛ لِأَجْلِ خُرُوجِ النَّبَاتِ، وَانْتَفَخَتْ بِسَبَبِ نُمُوِّ النَّبَاتِ وَتَدَاخُلِ الْمَاءِ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ جَمِيلِ الْمَنْظَرِ.(*/٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

أَلَمْ تَرَ -أَيُّهَا الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الرَّشِيدُ- نَاظِرًا إِلَىٰ آثَارِ صُنْعِ رَبِّكَ؛ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً عَلَىٰ أَرْضٍ صَالِحَةٍ لِلْإِنْبَاتِ، فِيهَا بُذُورُ نَبَاتَاتٍ مُنْبَثَّاتٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَامْتَصَّتِ الْبُذُورُ الْمُنْبَثَّةُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَاءِ وَمِنْ عَنَاصِرِ تُرَابِ الْأَرْضِ، فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ إِثْرَ نُزُولِ الْمَطَرِ مُخْضَرَّةً بِالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ.

(*) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [سورة النحل: ٦٥].

(*/ ٢) مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [سورة الحج: ٥].

إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ بِاسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ؛ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَالْحَيَوَانِ، يَنْفُذُ بِصِفَاتِهِ إِلَىٰ أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُودٍ؛ خَلْقًا وَإِمْدَادًا، وَعِلْمًا وَتَصَارِيفَ، خَبِيرٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الشُّهُودِ بِمَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِذَا تَأَخَّرَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ.(*).

۞ وُجُوبُ شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُسْتَقْصَىٰ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا، وَلَا يَكُونُ الشُّكْرُ مِنَّا وَاقِعًا إِلَّا إِذَا أَتَيْنَا بِأَرْكَانِهِ، وَحِينَئِذٍ نَكُونُ للهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ -وَإِنْ قَصَّرْنَا- شَاكِرِينَ، وَذَلِكَ:

* بِأَنْ نَعْتَرِفَ بِنِعَمِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْنَا بَاطِنًا.

* وَنُقِرَّ بِاللِّسَانِ بِهَا ظَاهِرًا.

* وَأَنْ نُصَرِّفَ تِلْكَ النِّعَمَ فِي مَرْضَاةِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا وَأَسْدَاهَا إِلَيْنَا.

فإنْ فَعَلْنَا ذلك؛ كُنَّا شاكِرِينَ وإنْ كُنَّا مُقَصِّرِينَ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[سورة الحج: ٦٣].

وَكَثِيرٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَمُرُّ عَلَيْنَا مَرًّا، وَقَدْ نَجْحَدُهَا جَحْدًا، وَلَا نُقِرُّ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِهَا لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا.

عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ نِعَمَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ نِعَمَ اللهِ الَّتِي تَتَوَاتَرُ مُتَنَزِّلَةً عَلَيْهِ، لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَنْ تُحْصَىٰ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي كَثْرَتِهَا فَوْقَ أَنْ تُسْتَقْصَىٰ، فَعَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ يَقِينًا، وَأَنْ يُقِرَّ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِذَلِكَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

أَنْ يَعْلَمَ بَاطِنًا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ، وَمَا أَسْدَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَلْهَجَ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ رَبِّهِ الَّذِي أَنْعَمَ إِلَيْهِ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ بِلِسَانِهِ ظَاهِرًا، وَأَنْ يُصَرِّفَ تِلْكَ النِّعَمَ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ جَلَّوَعَلَا.(*).

*** وُجُوبُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْمِيَاهِ، وَعَدَمِ الْإِسْرَافِ فِي اسْتِخْدَامِهَا:**

وَإِذَا كَانَ الْمَاءُ أَسَاسُ الْحَيَاةِ، وَعَطِيَّةُ اللهِ الْمُبَارَكَةُ؛ فَإِنَّ تَضْيِيعَهُ وَإِهْدَارَهُ إِزْهَاقٌ لِرُوحِ الْكَوْنِ، وَخِيَانَةٌ لِلْأَمَانَةِ، وَمُضَادَّةٌ لِفِقْهِ الشُّكْرِ.

وَقَدْ أَكَّدَتِ الشَّرِيعَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ نُصُوصِهَا عَلَىٰ أَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْمَاءِ إِثْمٌ وَضَلَالٌ، وَأَنَّ الِاقْتِصَادَ فِي الْمَاءِ عِبَادَةٌ وَصَوَابٌ.

إِنَّ الَّذِي يُسْرِفُ فِي الْمَاءِ أَوْ يُهْدِرُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ هُوَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يُظْهِرُ الْجُحُودَ بِنِعْمَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «الشُّكْرُ عَلَىٰ نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٢٨هـ/ ٢٦-١٠-٢٠٠٧م.

قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

التَّبْذِيرُ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ لِلنَّفْعِ -وَمِنْهُ الْمَاءُ- اسْتِخْفَافٌ بِالنِّعْمَةِ، وَإِتْلَافٌ لِمَا أَمَرَ اللهُ بِحِفْظِهِ.

وَقَدْ شَبَّهَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْمُبَذِّرِينَ بِإِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَهُمْ فِي الْإِفْسَادِ وَالْإِهْلَاكِ.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَرَىٰ الْقِمَّةَ فِي فِقْهِ التَّرْشِيدِ فَلْنَنْظُرْ إِلَىٰ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الْمَاءِ؛ فَقَدْ كَانَ ﷺ أَحْكَمَ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِلْمَاءِ، وَأَكْثَرَهُمْ رُشْدًا فِي اسْتِعْمَالِهِ، حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ نَهْرٍ جَارٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِمُدٍّ، وَيَغْتَسِلُ بِصَاعٍ إِلَىٰ خَمْسَةِ أَمْدَادٍ**»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَفِي الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَىٰ الِاقْتِصَادِ فِي اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، وَأَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي اسْتِعْمَالِهِ مَذْمُومٌ -وَلَوْ فِي الْعِبَادَةِ-.

وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَنِ الْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ -وَلَوْ كَانَ فِي الْحَلَالِ-، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

وَإِذَا كَانَ الْإِسْرَافُ فِي الشُّرْبِ مَنْهِيًّا عَنْهُ فَإِنَّ اسْتِعْمَالَهُ بِإِسْرَافٍ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَىٰ أَشَدُّ حَظْرًا وَمَنْعًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١)، ومسلم (٣٢٥).

وَقَدْ حَذَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْإِسْرَافِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَنَهَىٰ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي مَاءِ الْوُضُوءِ، وَأَمَرَ بِالِاقْتِصَادِ فِي الْمَاءِ -وَلَوْ كَانَ لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ-؛ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ** -وَالْمُدُّ: سَبْعَةٌ وَثَمَانُونَ وَسِتُّ مِائَةٍ مِلِّي مِنَ الْمَاءِ، يَعْنِي: لَمْ يَبْلُغِ اللِّتْرَ، يَتَوَضَّأُ بِأَقَلَّ مِنْ لِتْرٍ-، **وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ** -وَالصَّاعُ: لِتْرَانِ وَخَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ مِنَ اللِّتْرِ- **يَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَىٰ خَمْسَةِ أَمْدَادٍ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ النَّهْيِ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ عَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: «كَمْ يَكْفِينِي مِنَ الْوُضُوءِ؟».

قَالَ: «مُدٌّ».

قَالَ: «كَمْ يَكْفِينِي لِلْغُسْلِ؟».

قَالَ: «صَاعٌ».

قَالَ: فَقَالَ الرَّجُلُ: «لَا يَكْفِينِي».

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٦) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وأحمد (١٦٨٠١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٩٦).

(٢) تقدم تخريجه.

قَالَ: «**لَا أُمَّ لَكَ! قَدْ كَفَىٰ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ**»(١). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْبَزَّارُ، وَالطَّبَرَانِيُّ، بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُجْزِئُ مِنَ الْوُضُوءِ مُدٌّ، وَمِنَ الْغُسْلِ صَاعٌ**».

فَقَالَ رَجُلٌ: «لَا يُجْزِئُنَا».

فَقَالَ: «قَدْ كَانَ يُجْزِئُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَأَكْثَرُ شَعْرًا»(٢) يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ.

مَا أَجْمَلَ أَنْ نَتَأَدَّبَ بِآدَابِ نِعْمَةِ الْمَاءِ، وَنُدْرِكَ حَقِيقَتَهَا، فَنَحْفَظَهَا، وَنَسْأَلَ اللهَ شُكْرَهَا.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانُوا عَلَىٰ هَذَا الْمَاءِ يُحَاسِبُونَ: لِمَ شَرِبْتَ، لِمَ أَكْثَرْتَ، لِمَ نَقَصْتَ؟!»(٣). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ».

وَقَدْ أَصْبَحَ النَّاسُ يُسْرِفُونَ فِي الْمِيَاهِ إِسْرَافًا عَظِيمًا، وَنَسُوا أَنَّ الْمَاءَ قَدْ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٨) واللفظ له، والبزار كما في «كشف الأستار» للهيثمي (٢٥٥)، والطبراني (١١/ ٢٥٢) (١١٦٤٦)، وصححه الشيخ شاكر في «تخريج المسند» (٤/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٤٣٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ٣٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

يَكُونُ نِعْمَةً نُسْأَلُ عَنْهَا، أَوْ نِقْمَةً تُسْلَبُ مِنَّا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

الْغَوْرُ: هُوَ النُّزُولُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ لَا يُدْرَكَ.

فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: مَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ ظَاهِرٍ سَهْلٍ بَعْدَ أَنْ يَمْنَعَهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا؟!

فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَرْشِيدِ الْمَاءِ؟!!

وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ فِقْهِ السَّلَفِ فِي التَّقْوَىٰ عِنْدَ شُرْبِ كُلِّ قَطْرَةٍ؟!

فَلْنَكُنْ رَاشِدِينَ فِي اسْتِعْمَالِنَا، شَاكِرِينَ فِي قُلُوبِنَا، مُؤَدِّبِينَ لِأَبْنَائِنَا، حَافِظِينَ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «نِعْمَةُ الْمَاءِ مُقَوِّمٌ أَسَاسٌ لِلْحَيَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٤٧هـ| ١-٨-٢٠٢٥م.

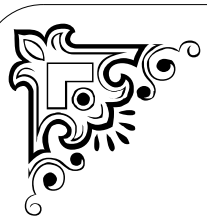

الرِّفْقُ بِالْحَيَوَانِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرِصَ دَوْمًا عَلَىٰ الرِّفْقِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ؛ فَإِنَّ الرِّفْقَ خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ عِبَادِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ**»(١).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِوَاهُ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(*).

وَمِمَّا نَبَّهَتْ عَلَيْهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَحَثَّتْ عَلَى الرِّفْقِ عِنْدَ التَّعَامُلِ مَعَهُ: الْحَيَوَانُ؛ فَقَدْ تَجَاوَزَتْ رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَنِي آدَمَ إِلَىٰ الْبَهَائِمِ؛ فَكَانَ يُوصِي بِالْبَهَائِمِ خَيْرًا، وَيُحَذِّرُ مِنْ ظُلْمِهَا بِأَبْلَغِ أَنْوَاعِ التَّرْهِيبِ، فَيَقُولُ ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ** -أَيْ: **قِطَّةٍ- حَبَسَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ**».

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٦٨٠٢) (١٦٨٠٥)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٠٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (٣٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «أَهَمِّيَّةُ الرِّفْقِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ» - الِاثْنَيْنِ ٢٥ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٤٤هـ| ١٩-١٢-٢٠٢٢م.

قَالَ: فَقَالَ: «**لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَخَشَاشُ الْأَرْضِ: هَوَامُّهَا وَمَا فِيهَا مِنْ حَشَرَاتٍ.

وَمَرَّ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ وَالْجُوعِ، فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»(٢).

وَدَخَلَ مَرَّةً حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى الْجَمَلُ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ**» أَيْ: صَاحِبُهُ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟

فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: «لِي يَا رَسُولَ اللهِ».

قَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ** -يَعْنِي: الْبَعِيرَ- **شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»(٣). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

«**وَتُدْئِبُهُ**» أَيْ: تُتْعِبُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، وفي «الأدب المفرد» (٣٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨) واللفظ له، وأحمد (١٧٦٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٨) من حديث سهل ابن الحنظلية الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩) واللفظ له، وأحمد (١٧٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ**[١]؛ **فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ؛ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَاتِكُمْ**»[٢]. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْتُ حُمَّرَةً -طَائِرٌ صَغِيرٌ كَالْعُصْفُورِ- فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ -يَعْنِي: تَبْسُطُ جَنَاحَيْهَا-، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟! رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**».

وَرَأَىٰ قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَقْنَاهَا فَقَالَ: «**مَنْ حَرَقَ هَذِهِ؟**».

قُلْنَا: «نَحْنُ».

قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»[٣]. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّهَا رَكِبَتْ بَعِيرًا، فَكَانَتْ فِيهِ صُعُوبَةٌ، فَجَعَلَتْ

---

(١) «**أن تتَّخِذوا ظُهورَ دَوابِّكم مَنابِرَ**» أي: لِلجُلوسِ عليها عِندَ الخُطبَةِ، وقيل: المرادُ الوقوفُ علىٰ ظُهورِها؛ أوِ المعنىٰ: لا تتَّخِذوها كالمنابرِ تَجلِسون عليها وتتحدَّثون فيما بينكم.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٦٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

تُرَدِّدُهُ(١)، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ**»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِوَاهُ**»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ بِالرِّفْقِ وَالرَّحْمَةِ؛ حَتَّىٰ بِالْحَيَوَانِ حَالَ ذَبْحِهِ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(٤). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَيُرَغِّبُ ﷺ فِي رَحْمَةِ الطُّيُورِ وَالدَّوَابِّ، وَيُخْبِرُ عَنْ غُفْرَانِ اللهِ لِرَجُلٍ بِرَحْمَتِهِ لِكَلْبٍ، فَيَقُولُ ﷺ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ** -أَيْ: صَعِدَ- **فَسَقَىٰ الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهَ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**».

قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ! وَإِنَّا لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟».

قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»(٥). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

---

(١) «فجَعَلَتْ تُرَدِّدُه» أي: تَمنَعُه وتَدفَعُه بشِدَّةٍ وعُنفٍ وتُحاوِلُ معه للرُّكوبِ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا**(١)**، أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا**(٢)؟»، فَنُهِيَ عَنْ ذَلِكَ»(٣). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.(*).

❀❀❀

(١) «**أَمَا بَلَغَكم**»: يُنكِرُ النَّبيُّ ﷺ علىٰ أصحابِ حِمارٍ مرَّ عليه، وقد وُسِمَ في وَجْهِه بالكَيِّ، كما في رِوايَةِ أبي داودَ.

(٢) «**أو ضرَبها**» أي: وَدَعَوتُ باللَّعْنِ علىٰ مَن ضرَب بَهيمَةً -أيضًا- «**في وَجْهِها**»؛ وذلك لأنَّ مَن ضرَبها في وَجْهِها ربَّما شوَّهه، وربَّما آذَىٰ الحواسَّ أو بعضَها؛ فيَحرُمُ فِعلُ ذلك بكُلِّ دابَّةٍ مُحترمَةٍ، وهو في الآدَميِّ أشَدُّ؛ لأنَّ ذلكَ تَغْييرٌ لخَلْقِ اللهِ.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٦٤) واللفظ له، وأبو يعلىٰ (٢١٤٨) بنحوه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٢٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «السَّلَامُ مَعَ النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْبِيئَةِ وَالْكَوْنِ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٤٤هـ| ٤-١١-٢٠٢٢م.

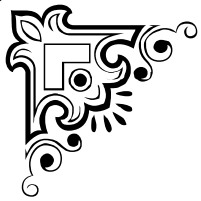

الْحِفَاظُ عَلَى الْبِيئَةِ وَإِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْهَا

إِنَّ الْمُسْلِمَ سِلْمٌ سَلَامٌ مَعَ بِيئَتِهِ الَّتِي تَحُوطُهُ وَيَعِيشُ فِيهَا، يَعْنِي أَنَّهُ يُحَافِظُ عَلَيْهَا، وَالْحِفَاظُ عَلَيْهَا مَسْؤُولِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ، فَكُلُّ مَا هُوَ نَافِعٌ لِحَيَاةِ الْعِبَادِ وَمَصَالِحِ الْبِلَادِ فَهُوَ مِنْ صَمِيمِ مَقَاصِدِ الْأَدْيَانِ، وَكُلُّ مَا هُوَ ضَارٌّ بِحَيَاةِ الْعِبَادِ وَمَصَالِحِ الْبِلَادِ فَفِعْلُهُ مَفْسَدَةٌ، وَدَرْؤُهُ مَصْلَحَةٌ وَاجِبَةٌ مُحَتَّمَةٌ.

وَقَدْ أَرْشَدَنَا نَبِيُّنَا ﷺ إِلَىٰ أَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ؛ حَيْثُ بَيَّنَ أَنَّ إِمَاطَةَ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً** -أَوْ: **بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**»(١). (*).

«**إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ أَنَّهَا شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ.

وَالْمُرَادُ بِإِمَاطَةِ الْأَذَىٰ: إِزَالَتُهُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْأَذَىٰ: هُوَ مَا يُؤْذِي الْمَارَّةَ؛ مِنْ

---

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٩)، وَمُسْلِمٌ (٣٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «السَّلَامُ مَعَ النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْبِيئَةِ وَالْكَوْنِ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٤٤هـ| ٤-١١-٢٠٢٢م.

حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ شَوْكٍ، أَوْ زُجَاجٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ، فَكُلُّ هَذَا مِنَ الْأَذَىٰ الَّذِي يَكُونُ فِي الطَّرِيقِ، فَيُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ.

«**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**»(١). وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ(٢) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَىٰ يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ**».

فَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَمِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ -كَمَا فِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ-.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَلْتَفِتُ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْتَفَتُوا إِلَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ؛ لَكَانَتْ طُرُقُهُمْ أَفْضَلَ بِكَثِيرٍ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ؛ بَلْ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا طُرُقٌ كَطُرُقِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ يَشْكُونَ مِنَ الْقَذَارَةِ وَإِلْقَاءِ الْقَاذُورَاتِ فِي طُرُقِهِمْ وَشَوَارِعِهِمْ.

وَحَدِيثٌ وَاحِدٌ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ كَفِيلٌ لِإِزَالَةِ تِلْكَ الشَّكْوَىٰ.

وَأَيْضًا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْغَرْبِ وَإِلَىٰ الشَّرْقِ وَالدُّوَلِ الَّتِي يَقُولُونَ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مُسْلِمٌ (٥٥٣).

عَنْهَا «مُتَقَدِّمَةٌ»، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ رَجَعَ فَمَدَحَ شَوَارِعَهُمْ، وَهَذَا كُلُّهُ دَلَّنَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَوْ أَخَذْنَا بِهِ مَا فَاقَنَا أَحَدٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ -مَثَلًا-؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ، وَيَظْلِمُ دِينَهُ، وَيَظْلِمُ إِخْوَانَهُ الْمُسْلِمِينَ.

الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ يَعُودُونَ يَمْدَحُونَ النَّظَافَةَ؛ فَأَيْنَ نَظَافَةُ أُولَئِكَ الْخَلْقِ؟!!

هُمْ نَظَّفُوا شَوَارِعَهُمْ، نَظَّفُوا بُيُوتَهُمْ ظَاهِرًا؛ لَكِنَّهُمْ قَذَّرُوهَا بِالشِّرْكِ كَمَا قَذَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَجْسَادَهُمْ، وَأَرْوَاحَهُمْ.

فِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عِنْدَ مُسْلِمٍ(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ(٢): «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَىٰ ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٣): «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**».(*).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ**

---

(١) أخرجه مُسْلِمٌ (١٩١٤).

(٢) أخرجه مُسْلِمٌ (١٩١٤).

(٣) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٦٥٢)، وَمُسْلِمٌ (١٩١٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة ٢٦)، الْأَرْبِعَاءُ ٢٣ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٥هـ| ٢٧-١١-٢٠١٣م.

صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ(١)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ.

كَمَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَلْوِيثِ الْبِيئَةِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَتَلْوِيثِ الْمَاءِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، قَالَ ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ**».

قَالُوا: «وَمَا اللَّاعِنَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟».

قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّىٰ فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»(٢).

قَالَ ﷺ: «**اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ** -أَيِ: اتَّقُوا الْخِصَالَ الثَّلَاثَ الَّتِي تَسْتَجْلِبُ اللَّعْنَ لِفَاعِلِهَا-، **اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازُ فِي الْمَوَارِدِ** -أَيْ: فِي مَوَارِدِ الْمَاءِ-، **وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ**»(٣).

وَذَلِكَ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ الْمَاءُ الْمُلَوَّثُ مَصْدَرَ أَذًىٰ وَنَقْلٍ لِلْأَمْرَاضِ الْمُهْلِكَةِ.(*).

❀❀❀

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٢٩٨٩)، وَمُسْلِمٌ (١٠٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «السَّلَامُ مَعَ النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْبِيئَةِ وَالْكَوْنِ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٤٤هـ| ٤-١١-٢٠٢٢م.

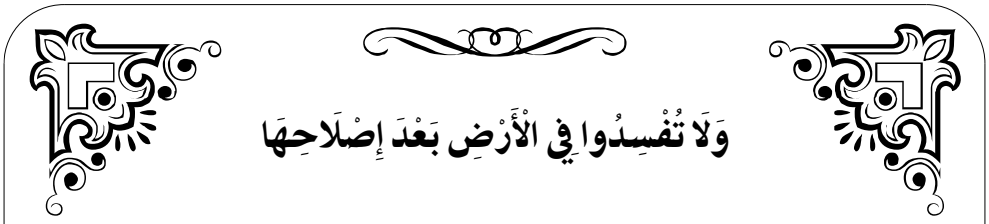

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا

لَقَدْ أَمَرَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **-وَهُوَ الْقَائِلُ عَنْ نَفْسِهِ:** ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]- **أَنْ نُحَافِظَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بِبَقَاءِ الصَّلَاحِ فِيهَا، وَأَنْ نَمْنَعَ الْفَسَادَ عَنْهَا، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِإِفْسَادِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ بِالْأَوْبِئَةِ، وَإِفْسَادِ الْأَحْيَاءِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَإِفْسَادِ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَسُلُوكِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَفَاهِيمِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، ذَلِكُمُ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكُمْ وَأَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ.(*).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يَنْهَىٰ -تَعَالَىٰ- عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ مُسَدَّدَةً، ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ؛ كَانَ أَضَرَّ مَا يَكُونُ عَلَىٰ الْعِبَادِ، فَنَهَىٰ -تَعَالَىٰ- عَنْ ذَلِكَ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الأعراف: ٨٥].

(٢) بتصرف من: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٨٥).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَهَىٰ ﷻ عَنْ كُلِّ فَسَادٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ بَعْدَ صَلَاحٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، فَهُوَ عَلَىٰ الْعُمُومِ -عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ-»(١). (*).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦](٣): «قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: لَا تُفْسِدُوا فِيهَا بِالْمَعَاصِي، وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ بَعْدَ إِصْلَاحِ اللهِ لَهَا بِبَعْثِ الرُّسُلِ، وَبَيَانِ الشَّرِيعَةِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ طَاعَةِ اللهِ؛ فَإِنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللهِ، وَالدَّعْوَةَ إِلَىٰ غَيْرِه، وَالشِّرْكَ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ بَلْ فَسَادُ الْأَرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالشِّرْكِ، وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ -تَعَالَىٰ-.

فَالشِّرْكُ وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ، وَإِقَامَةُ مَعْبُودٍ غَيْرَهُ، وَمُطَاعٍ مُتَّبَعٍ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا صَلَاحَ لَهَا وَلَا لِأَهْلِهَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْمَعْبُودَ الْمُطَاعَ، وَتَكُونَ الدَّعْوَةُ لَهُ، لَا لِغَيْرِهِ، وَالطَّاعَةُ وَالِاتِّبَاعُ لِرَسُولِهِ، لَيْسَ إِلَّا، وَغَيْرُهُ إِنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُ إِذَا أَمَرَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَإِذَا أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ، وَخِلَافِ شَرِيعَتِهِ؛ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ، وَمَنْ تَدَبَّرَ أَخْبَارَ الْعَالَمِ؛ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ سَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ، وَعِبَادَتُهُ، وَطَاعَةُ

---

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي (٧/ ٢٢٦) ط. دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْإِرْهَابُ وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» - الْجُمُعَةُ ٢٠ مِنْ شَوَّالٍ ١٤٣٨هـ| ١٤-٧-٢٠١٧م.

(٣) «**بدائع الفوائد**» للإمام ابن القيم (٣/ ١٤ والتي بعدها) ط. دار الكتاب العربي.

رَسُولِهِ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ، وَفِتْنَةٍ، وَبَلَاءٍ، وَقَحْطٍ، وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ رَسُولِهِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ».(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: ٨٥].

وَلَا تَتَمَادَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بِأَعْمَالِكُمُ الْإِجْرَامِيَّةِ الظَّالِمَةِ، وَمَنْعِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَىٰ الْمُسَافِرِينَ.(*/٢).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥].

«﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ أَيْ: يَجْتَهِدُ عَلَىٰ أَعْمَالِ الْمَعَاصِي الَّتِي هِيَ إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ، وَيُهْلِكُ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، فَالزُّرُوعُ وَالثِّمَارُ وَالْمَوَاشِي تَتْلَفُ، وَتَنْقُصُ، وَتَقِلُّ بَرَكَتُهَا بِسَبَبِ الْعَمَلِ فِي الْمَعَاصِي، وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا كَانَ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ؛ فَهُوَ يُبْغِضُ الْعَبْدَ الْمُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ غَايَةَ الْبُغْضِ؛ وَإِنْ قَالَ بِلِسَانِهِ قَوْلًا حَسَنًا»(٣).

«﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ أَيْ: هُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ، سَيِّئُ الْفِعَالِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ وَهَذَا فِعْلُهُ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْإِدْمَانُ وَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ» - الْجُمُعَة ٤ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٦هـ| ٢٢- ٥- ٢٠١٥م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [هود: ٨٥].

(٣) «**تيسير الكريم الرحمن**» (ص: ٩٢).

كَلَامُهُ كَذِبٌ، وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ.

فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ -وَهُوَ: مَحَلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ-، وَالنَّسْلِ -وَهُوَ: نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ- اللَّذَيْنَ لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا.

قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا؛ مَنَعَ اللهُ الْقَطْرَ، فَهَلَكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ».

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أَيْ: لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَلَا مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ ذَلِكَ»(١). (*).

أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ-: أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- جَعَلَ نَعِيمَ الدَّارِ الْآخِرَةِ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ تَكَبُّرًا عَنِ الْحَقِّ فِي الْأَرْضِ، وَتَجَبُّرًا عَنْهُ، وَلَا فَسَادًا، وَلَا ظُلْمَ النَّاسَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَعَمَلًا بِمَعَاصِي اللهِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

تِلْكَ الْجَنَّةُ الْبَعِيدَةُ الْمَكَانِ وَالْمَكَانَةِ، الْمُرْتَفِعَةُ الْمَنْزِلَةِ نَجْعَلُ نَعِيمَهَا مُسْتَقْبَلًا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ اسْتِكْبَارًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَلَا اسْتِطَالَةً عَلَىٰ النَّاسِ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٢٠-٤٢١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِن: «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» (تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ)، (الْمُحَاضَرَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ)، السَّبْتُ ١٩ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٨هـ| ١٩-١١-٢٠١٦م.

بِتَحْقِيقِ حُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَيَنْشُرُونَ الْفَاحِشَةَ، وَيَطْرَحُونَ الشُّبُهَاتِ، وَيُفْسِدُونَ الْأَخْلَاقَ وَالْقِيَمَ وَالْآدَابَ، وَالْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ لِمَنِ اتَّقَىٰ عِقَابَ اللهِ بِأَدَاءِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [القصص: ٨٣].

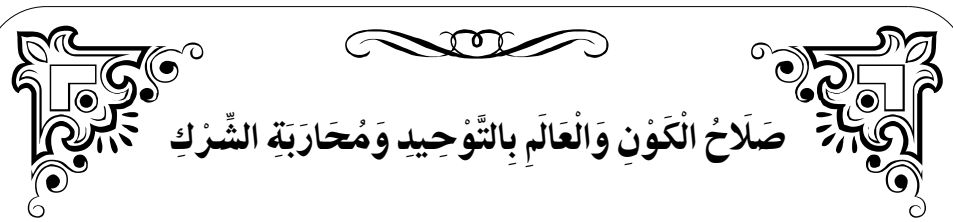

صَلَاحُ الْكَوْنِ وَالْعَالَمِ بِالتَّوْحِيدِ وَمُحَارَبَةِ الشِّرْكِ

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ وَاجِبَنَا تِجَاهَ مَا يَحْصُلُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ أَنْ نُصْلِحَهُ بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ، وَذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ، وَمُجَاهَدَةِ الْأَنْفُسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَبِذَلِكَ يَكْثُرُ الْخَيْرُ وَيَعْظُمُ، وَيَقِلُّ الشَّرُّ وَيَصْغُرُ -بِإِذْنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا-، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

«**يَقُولُ تَعَالَىٰ:** فَهَلَّا وُجِدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: قَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ، لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللهُ عِنْدَ حُلُولِ غِيَرِهِ، وَفَجْأَةِ نِقَمِهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ -تَعَالَىٰ- هَذِهِ الْأُمَّةَ الشَّرِيفَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٤].

وَفِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»(١)؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أَيْ: اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ إِنْكَارِ أُولَئِكَ حَتَّىٰ فَجَأَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بَأْسُهُ وَعَذَابُهُ قَطُّ حَتَّىٰ يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هُودٍ: ١٠١]، وَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦]»(٢).

إِنَّ الْمَصْلَحَةَ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِمَا يَتَحَقَّقُ بِهِ نَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَنَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأَعْرَاف: ٥٦].

فَلَا يَتَحَقَّقُ الصَّلَاحُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَنْتَفِي الْفَسَادُ مِنْهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فِيهَا، الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْخَلْقَ، فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ مِنَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٣٣٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠٩).

الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا هُوَ: تَحْقِيقُ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَبِهِ تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ، وَبِهِ تَنْتَفِي الْمَفْسَدَةُ.(*).

لَا يَجْمَعُ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُوَحِّدُ صُفُوفَهُمْ، وَلَا يُعْلِي شَأْنَهُمْ إِلَّا اجْتِمَاعُهُمْ عَلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ.

وَلَا يَسْتَتِبُّ الْأَمْنُ، وَلَا يَحُلُّ الِاسْتِقْرَارُ إِلَّا إِذَا اسْتَقَرَّ التَّوْحِيدُ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فَلَا يَسْتَتِبُّ الْأَمْنُ، وَلَا يَحْصُلُ الِاسْتِقْرَارُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ، وَنَفْيِ الشِّرْكِ.

وَهَذِهِ الْمَطَالِبُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ مِنَ الِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، وَالتَّمْكِينِ لِلدِّينِ، وَالْإِتْيَانِ بِالْأَمْنِ، كُلُّهَا لَا تَأْتِي إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾.

فَلَا تَجْتَمِعُ كَلِمَةُ الْأُمَّةِ، وَلَا يَصِحُّ بِنَاؤُهَا إِلَّا عَلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِلَّا عَلَىٰ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الصَّحِيحَةِ.

أَمَّا إِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ، وَتَفَشَّتِ الْبِدَعُ وَالْخُرَافَاتُ، وَقِيلَ: اتْرُكُوا النَّاسَ أَحْرَارًا

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ: ١٤٣٨هـ (فِئْرَانُ السُّدُودِ) - الْأَحَد ١ مِنْ شَوَّال ١٤٣٨هـ| ٢٥-٦-٢٠١٧م.

فِي عَقَائِدِهِمْ، لَا تُنَفِّرُوهُمْ، وَلَا تُبَدِّدُوا جَمْعَهُمْ!! إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ؛ حَصَلَ الِاخْتِلَافُ، وَحَصَلَ التَّفَرُّقُ، وَدَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَهَىٰ قُوَّتَهُمْ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي الدُّنْيَا الْيَوْمَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمَّا أَرْسَلَ نَبِيَّهُ ﷺ؛ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُومُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَامَ بِهِ، وَنَظَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ؛ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الدَّيَّارَاتِ وَالصَّوَامِعِ وَالْبِيَعِ، كَانُوا قَدْ قَرَءُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، وَيَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِشِيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَنْتَظِرُونَ مَقْدَمَهُ، وَأَطْبَقَتِ الْأَرْضُ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ.

فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ، وَدَعَا إِلَىٰ تَوْحِيدِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَانْصَاعَتْ قُلُوبٌ إِلَىٰ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَأُسِّسَتِ الْمِلَّةُ عَلَيْهِ، وَانْتَشَرَ التَّوْحِيدُ فِي الْأَرْضِ؛ عَمَّ فِيهَا الْخَيْرُ، وَقَلَّ فِيهَا الشَّرُّ.

وَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ -كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[1] مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه-: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ؛ فَطُوبَىٰ للغرباء**».

كُلَّمَا بَعُدَ الْعَهْدُ عَنْ عَصْرِ النُّبُوَّةِ؛ كَثُرَ الشَّرُّ، وَقَلَّ الْخَيْرُ.

إِنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ كَانُوا مُتَفَرِّقِينَ مُتَشَتِّتِينَ، عِنْدَهُمْ ثَارَاتٌ وَغَارَاتٌ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ؛ اسْتَجَابُوا للهِ وَلِرَسُولِهِ،

---

(١) «صحيح مسلم»: ١/ ١٣٠، رقم (١٤٥).

تَوَحَّدُوا، وَصَارُوا قُوَّةً هَائِلَةً فِي الْأَرْضِ، سَادَتِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

اللهُ جَلَّوَعَلَا بَيَّنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالَهُمْ قَبْلَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ أُمُورَهُمْ بَعْدَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتَجَابَتِهِمْ لَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَانُوا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَكَانُوا مَطْمَعًا لِشُعُوبِ الْأَرْضِ، كَانَتْ تُسَيْطِرُ عَلَىٰ الْعَرَبِ فَارِسُ وَالرُّومُ، وَكُلُّ دَوْلَةٍ مِنْ دُوَلِ الْكُفْرِ كَانَ لَهَا فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ نَصِيبٌ.

فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ؛ انْعَكَسَ الْأَمْرُ، فَصَارَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ تُسَيْطِرُ عَلَىٰ الْعَالَمِ، وَامْتَدَّتِ الْفُتُوحُ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «لَا يُصْلِحُ آخَرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، وَقَدْ أَصْلَحَ أَوَّلَهَا الْإِيمَانُ وَالْيَقِينُ»(١).

---

(١) «**مجموع الفتاوىٰ**» لابن تيمية: ١/ ٢٤١ و٣٥٣، و٢٤/ ٣٥٨، وأخرجه الجَوْهَرِيُّ المالكي في «**مسند الموطأ**»: رقم (٧٨٣)، وابن عبد البر في «**التمهيد**»: ٢٣/ ١٠، بإسناد صحيح، عَنْ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا، ثُمَّ لا يَقُومُ أَبَدًا =

هَذِهِ الْأُمَّةُ إِذَا أَرَادَتْ الِاجْتِمَاعَ، وَأَرَادَتِ الْقُوَّةَ، وَأَرَادَتْ الِائْتِلَافَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، وَالَّذِي أَصْلَحَ أَوَّلَهَا هُوَ التَّوْحِيدُ.

لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا التَّوْحِيدُ، وَالِاجْتِمَاعُ عَلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، الِاجْتِمَاعُ عَلَىٰ كَلِمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ».

فَالَّذِي يَجْمَعُ الْأُمَّةَ: الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وَالْهُدَىٰ: الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينُ الْحَقِّ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِعَ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَسَاسُ ذَلِكَ: التَّوْحِيدُ، وَإِفْرَادُ اللهِ ﷻ بِالْعِبَادَةِ.

وَالْأَنْبِيَاءُ هُمُ الْمُصْلِحُونَ حَقًّا.. هُمُ الْمُصْلِحُونَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ بَعَثَهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَقْوَامِهِمْ، وَقَدْ تَفَشَّتْ فِيهِمُ الْأَمْرَاضُ فَوْقَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ.

كَانَتْ عِنْدَهُمْ -أَيْضًا- أَمْرَاضٌ تَتَعَلَّقُ بِسِيَاسَاتِهِمْ، وَتَتَعَلَّقُ بِاقْتِصَادِهِمْ، وَتَتَعَلَّقُ بِمُجْتَمَعَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

=

حَتَّىٰ يَقُولَ لَنَا: «إِنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»، قُلْتُ لَهُ: يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ: «يُرِيدُ التَّقْوَىٰ».

وَمَعَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَبْدَأْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ -وَهُمُ الْمُصْلِحُونَ حَقًّا، وَهُمُ الْمُصْلِحُونَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ-؛ لَمْ يَبْدَؤُوا دَعْوَةَ أَقْوَامِهِمْ بِشَيْءٍ قَبْلَ تَوْحِيدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَلَنَا فِيهِمُ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ، وَالْقُدْوَةُ الصَّالِحَةُ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنْ نَقْتَدِيَ بِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَىٰ: «الْقَوْلُ الْمُفِيدُ عَلَىٰ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - السَّبْت ١٥ مِنَ الْمُحَرَّم ١٤٣٣هـ| ١٠-١٢-٢٠١١م

التَّرْهِيبُ مِنَ

الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ

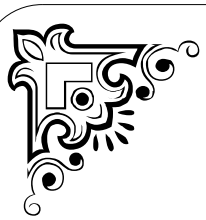

الْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ وَزِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

الْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ﷺ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَالْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَهُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: ٧٢].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٩-٥٠].

وَهُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

وَالذُّرِّيَّةُ الطَّيِّبَةُ سَأَلَهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا

زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ﴾ [آل عمران: ٣٨- ٣٩].

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ لِسَانِ زَكَرِيَّا -أَيْضًا-: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم: ٥-٦].

قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَقَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ يَعْنِي بِهَذَا الْوَلِيِّ: الْوَلَدَ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- فِي الْقِصَّةِ نَفْسِهَا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ﴾ [آل عمران: ٣٨- ٣٩]، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّهُ الْوَلَدُ -أَيْضًا- بِقَوْلِهِ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أَيْ: وَاحِدًا بِلَا وَلَدٍ».

وَلِذَا كَانَ مِنْ دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٦] مَا ذَكَرَهُ -سُبْحَانَهُ- فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

❀❀❀

(١) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٤/ ٢٦٦).

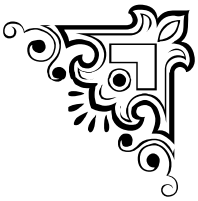

نِعْمَةُ الْأَوْلَادِ مِنْحَةٌ أَوْ مِحْنَةٌ

«اتَّقُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَاشْكُرُوهُ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعْمَةِ الْأَوْلَادِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ فِتْنَةٌ لِلْعَبْدِ وَاخْتِبَارٌ.

- **فَإِمَّا مِنْحَةٌ تَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**، سُرُورٌ لِلْقَلْبِ، وَانْبِسَاطٌ لِلنَّفْسِ، وَعَوْنٌ عَلَىٰ مَكَابِدِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَصَلَاحٌ يَحْدُوهُمْ إِلَىٰ الْبِرِّ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ، اجْتِمَاعٌ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَاجْتِمَاعٌ فِي الْآخِرَةِ فِي دَارِ كَرَامَةِ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وَإِنَّ مِنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الْمِنْحَةِ: أَنْ يَقُومَ الْوَالِدَانِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمَا مِنْ رِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ وَتَرْبِيَةٍ صَالِحَةٍ، وَأَنْ يَقُومَ الْأَبُ خَاصَّةً بِذَلِكَ؛ لِيُخَلِّفَ بَعْدَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً تَنْفَعُهُ وَتَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مَتَىٰ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَصْلَحَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَمَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَكَثْرَةِ دُعَائِهِ وَلُجُوئِهِ إِلَىٰ اللهِ يَحْصُلُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ وَالتَّرْبِيَةُ الصَّالِحَةُ.

يَقُولُ -تَعَالَىٰ- فِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤].

فَوَاللهِ مَا سَأَلُوا ذَلِكَ وَقَعَدُوا عَنْ فِعْلِ الْأَسْبَابِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَقْتَضِي أَنَّكَ إِذَا سَأَلْتَ اللهَ شَيْئًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَوْ سَأَلَ اللهَ رِزْقًا لَسَعَىٰ فِي أَسْبَابِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، وَلَوْ سَأَلَ اللهَ ذُرِّيَّةً لَسَعَىٰ فِي حُصُولِ الزَّوْجَةِ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تُنْبِتُ أَوْلَادًا، وَهَكَذَا إِذَا سَأَلَ اللهَ صَلَاحَ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْعَىٰ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابٍ؛ ذَلِكَ لِكَيْ تَكُونَ نِعْمَةُ الْأَوْلَادِ مِنْحَةً.

- **أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي مِنْ نِعْمَةِ الْأَوْلَادِ؛ فَأَنْ تَكُونَ مِحْنَةً وَعَنَاءً، وَشُؤْمًا وَشَقَاءً عَلَىٰ أَهْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ**، وَذَلِكَ فِيمَنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ لَهُمْ مِنْ رِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ وَتَرْبِيَةٍ صَالِحَةٍ، أَهْمَلَهُمْ فَلَمْ يُبَالِ بِهِمْ، أَكْبَرُ هَمِّهِ نَحْوَهُمْ حِينَ كَانُوا شَهْوَةً قَذَفَهَا فِي رَحِمِ الْأُمِّ، أَضَاعَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ فَأَضَاعُوا حَقَّ اللهِ فِيهِ، لَمْ يُحْسِنْ إِلَيْهِمْ بِالتَّرْبِيَةِ فَلَمْ يُحْسِنُوا إِلَيْهِ بِالْبِرِّ؛ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، فَفَاتَهُ نَفْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَيَكُونَنَّ مِنَ النَّادِمِينَ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

لَقَدْ ضَلَّ أَقْوَامٌ اعْتَنَوْا بِتَنْمِيَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَرِعَايَتِهَا وَصِيَانَتِهَا وَحِفْظِهَا، فَأَشْغَلُوا أَفْكَارَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ وَانْشَغَلُوا بِهَا عَنْ رَاحَتِهِمْ وَمَنَامِهِمْ، ثُمَّ نَسُوا أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادَهُمْ، وَمَا هِيَ قِيمَةُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ؟!!

أَلَيْسَ مِنَ الْأَجْدَرِ بِهَؤُلَاءِ أَنْ يُخَصِّصُوا شَيْئًا مِنْ قُوَاهُمُ الْفِكْرِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ

لِتَرْبِيَةِ أَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ؛ حَتَّىٰ يَكُونُوا بِذَلِكَ شَاكِرِينَ نِعْمَةَ اللهِ، مُمْتَثِلِينَ لِأَمْرِ اللهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمُ الْوِلَايَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَحَمَّلَكُمْ مَسْؤُولِيَّةَ الْأَهْلِ، أَمَرَكُمْ بِأَنْ تَقُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ تِلْكَ النَّارَ الْمُزْعِجَةَ، لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِأَنْ تَقُوا أَنْفُسَكُمْ فَحَسْبُ، بَلْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ.

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُضَيِّعِينَ لِأَمْرِ اللهِ فِي حَقِّ أَوْلَادِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ لَوْ أَصَابَتْ نَارُ الدُّنْيَا طَرَفًا مِنْ وَلَدِهِ أَوْ كَادَتْ؛ لَسَعَىٰ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ لِدَفْعِهَا، وَهَرَعَ إِلَىٰ كُلِّ طَبِيبٍ لِلشِّفَاءِ مِنْ حَرْقِهَا وَأَلَمِهَا، أَمَّا نَارُ الْآخِرَةِ فَلَا يُحَاوِلُ أَنْ يُخَلِّصَ أَوْلَادَهُ وَأَهْلَهُ مِنْهَا»[1].

❀❀❀

(١) «الضياء اللامع من الخطب الجوامع» (الخطبة الرابعة: وجوب رعاية الأولاد والأهل) (ص: ٦١٢-٦١٣) للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

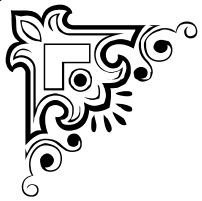

مَظَاهِرُ إِهْمَالِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَعَوَاقِبُهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يُرَاقِبَ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ، فِي أَصْحَابِهِمْ وَأَخِلَّائِهِمْ؛ حَتَّي يَكُونَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَيَقِينٍ فِي اتِّجَاهَاتِهِمْ وَسَيْرِهِمْ، فَيُقِرَّ مَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ صَالِحًا، وَيُنْكِرَ مَا يَرَاهُ فَاسِدًا، وَيُكَلِّمَهُمْ صَرَاحَةً، وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ وَيَرُدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَغْضَبُ فَيَجْفُوهُمْ وَيُعْرِضُ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَسَادِ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَقُمْ عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَتَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً صَالِحَةً فَمَنِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهَا؟!!

هَلْ يَقُومُ عَلَيْهَا أَبَاعِدُ النَّاسِ وَمَنْ لَا صِلَةَ لَهُ فِيهِمْ؟!!

أَمْ يُتْرَكُ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ وَالْأَغْصَانُ الْغَضَّةُ تَعْصِفُ بِهَا رِيَاحُ الْأَفْكَارِ الْمُضِلَّةِ، وَالِاتِّجَاهَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْهَدَّامَةِ، فَيَنْشَأُ مِنْ هَؤُلَاءِ جِيلٌ فَاسِدٌ لَا يَرْعَىٰ لِلَّهِ وَلَا لِلنَّاسِ حُرْمَةً وَلَا حُقُوقًا، جِيلٌ فَوْضَوِيٌّ مُتَهَوِّرٌ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، مُتَحَرِّرٌ مِنْ كُلِّ رِقٍّ إِلَّا مِنْ رِقِّ الشَّيْطَانِ، مُنْطَلِقٌ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ إِلَّا مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ وَالطُّغْيَانِ!

نَعَمْ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ هِيَ النَّتِيجَةَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ مُعْتَذِرًا: أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ تَرْبِيَةَ أَوْلَادِي، إِنَّهُمْ كَبِرُوا وَتَمَرَّدُوا عَلَيَّ.

وَالْجَوَابُ عَلَىٰ هَذَا أَنْ تَقُولَ: لَوْ سَلَّمْنَا هَذَا الْعُذْرَ جَدَلًا أَوْ حَقِيقَةً وَاقِعَةً، ثُمَّ فَكَّرْنَا؛ لَوَجَدْنَا أَنَّكَ أَنْتَ السَّبَبُ فِي سُقُوطِ هَيْبَتِكَ مِنْ نُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّكَ أَضَعْتَ أَمْرَ اللهِ فِيهِمْ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، فَتَرَكْتَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ كَمَا يَشَاؤُونَ، لَا تَسْأَلُهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَلَا تَأْنَسُ بِالِاجْتِمَاعِ إِلَيْهِمْ، لَا تَجْتَمِعُ مَعَهُمْ عَلَىٰ غَدَاءٍ وَلَا عَلَىٰ عَشَاءٍ وَلَا غَيْرِهِمَا، فَوَقَعَتِ الْجَفْوَةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَوْلَادِكَ، فَنَفَرُوا مِنْكَ وَنَفَرْتَ مِنْهُمْ؛ فَكَيْفَ تَطْمَعُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَنْقَادُوا لَكَ، أَوْ يَأْخُذُوا بِتَوْجِيهَاتِكَ؟!!

وَلَوْ أَنَّكَ اتَّقَيْتَ اللهَ فِي أَوَّلِ أَمْرِكَ، وَقُمْتَ بِتَرْبِيَتِهِمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أُمِرْتَ؛ لَأَصْلَحَ لَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَبُّكَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]»(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ؛ أَحَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكُبْرَىٰ»، وَابْنُ حِبَّانَ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

---

(١) «الضياء اللامع من الخطب الجوامع» (الخطبة الرابعة: وجوب رعاية الأولاد والأهل) (ص: ٦١٣-٦١٤) للعلَّامة ابن عثيمين رحمه الله.

وَقَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَىٰ النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «وَكَمْ مِمَّنْ أَشْقَىٰ وَلَدَهُ وَفِلْذَةَ كَبِدِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِإِهْمَالِهِ، وَتَرْكِ تَأْدِيبِهِ، وَإِعَانَتِهِ عَلَىٰ شَهَوَاتِهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يُكْرِمُهُ وَقَدْ أَهَانَهُ، وَأَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَقَدْ ظَلَمَهُ، فَفَاتَهُ انْتِفَاعُهُ بِوَلَدِهِ، وَفَوَّتَ عَلَيْهِ حَظَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْفَسَادَ فِي الْأَوْلَادِ رَأَيْتَ عَامَّتَهُ مِنْ قِبَلِ الْآبَاءِ».

وَقَالَ -أَيْضًا- رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «وَأَكْثَرُ الْأَوْلَادِ إِنَّمَا جَاءَ فَسَادُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْآبَاءِ وَإِهْمَالِهِمْ لَهُمْ، وَتَرْكِ تَعْلِيمِهِمْ فَرَائِضَ الدِّينِ وَسُنَنَهُ، فَأَضَاعُوهُمْ صِغَارًا فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَنْفَعُوا آبَاءَهُمْ كِبَارًا، كَمَا عَاتَبَ بَعْضُهُمْ وَلَدَهُ عَلَىٰ الْعُقُوقِ فَقَالَ وَلَدُهُ: يَا أَبَتِ! إِنَّكَ عَقَقْتَنِي صَغِيرًا فَعَقَقْتُكَ كَبِيرًا، وَأَضَعْتَنِي وَلِيدًا فَأَضَعْتُكَ شَيْخًا كَبِيرًا».

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٣٥١).

(٣) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٣٣٧).

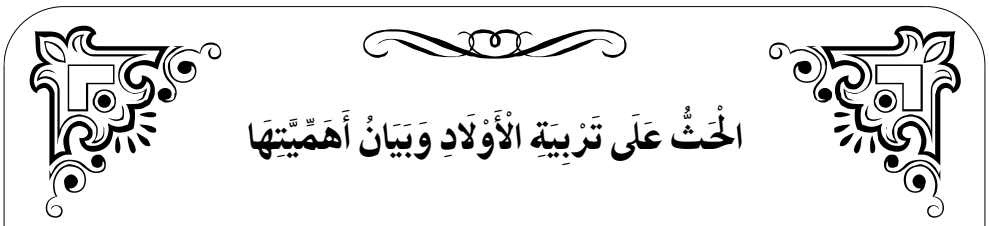

الْحَثُّ عَلَى تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَبَيَانُ أَهَمِّيَّتِهَا

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ**(١): «وَقَدْ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَالْفِرْيَابِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ قَالَ: «عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ، وَعَلِّمُوا أَهْلِيكُمُ الْخَيْرَ، وَأَدِّبُوهُمْ».

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٢): «يَا هَذَا! أَحْسِنْ أَدَبَ ابْنِكَ؛ فَإِنَّكَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ بِرِّكَ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **تَفْسِيرًا لِآيَةِ التَّحْرِيمِ السَّابِقَةِ**(٣): «أَدِّبُوهُمْ وَعَلِّمُوهُمْ».

---

(١) «فتح القدير» (٥/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٣/ ١٢٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «العيال» «موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا» (٨/ ٧٧ (٣٢٤)»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥/ ١٤٤ (٨٢٨٠)»).

وَإِنَّ مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّكَ إِنْ غَرَسْتَ خَيْرًا حَصَدْتَ خَيْرًا، وَإِنْ غَرَسْتَ شَرًّا وَجَدْتَ شَرًّا وَلَا بُدَّ.

فَسُوءُ التَّرْبِيَةِ لَهُ آثَارٌ مُدَمِّرَةٌ عَلَىٰ الْأَبْنَاءِ وَعَلَىٰ الْوَالِدَيْنِ، بَلْ وَعَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، فَكَمَا أَنَّكَ مَسْؤُولٌ عَنْ تَرْبِيَتِهِ فَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ بِرِّكَ، فَتَعْلِيمُ الْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ؛ مِنَ الْعِفَّةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْبِرِّ، وَحِفْظِ اللِّسَانِ، وَحِفْظِ الْوَقْتِ، وَالِاشْتِغَالِ بِالنَّافِعِ الْمُفِيدِ يُجَنِّبُ -بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ- الْوُقُوعَ فِي الْأَخْطَارِ وَالْمَكَارِهِ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

فَالتَّرْبِيَةُ الْحَسَنَةُ جَاءَتْ بِهَا النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ:

قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ(١): «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَيُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**».

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وَمِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الطِّفْلُ غَايَةَ الِاحْتِيَاجِ: الِاعْتِنَاءُ بِأَمْرِ خُلُقِهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَلَىٰ مَا عَوَّدَهُ الْمُرَبِّي فِي صِغَرِهِ؛ مِنْ حَرَدٍ(٣)

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٣٤٩-٣٥١).

(٣) غضب وحقد.

وَغَضَبٍ، وَلَجَاجٍ وَعَجَلَةٍ، وَخِفَّةٍ مَعَ هَوَاهُ، وَطَيْشٍ وَحِدَّةٍ وَجَشَعٍ، فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ فِي كِبَرِهِ تَلَافِي ذَلِكَ، وَتَصِيرُ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ صِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ رَاسِخَةً لَهُ، فَلَوْ تَحَرَّزَ مِنْهَا غَايَةَ التَّحَرُّزِ فَضَحَتْهُ -وَلَا بُدَّ- يَوْمًا مَا.

وَلِهَذَا تَجِدُ أَكْثَرَ النَّاسِ مُنْحَرِفَةً أَخْلَاقُهُمْ، وَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْلُظَ أَعْوَادُهُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ قِبَلِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا.

وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُجَنَّبَ الصَّبِيُّ إِذَا عَقَلَ مَجَالِسَ اللَّهْوِ وَالْبَاطِلِ، وَالْغِنَاءَ، وَسَمَاعَ الْفُحْشِ، وَالْبِدَعَ، وَمَنْطِقَ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا عَلِقَ بِسَمْعِهِ عَسُرَ عَلَيْهِ مُفَارَقَتُهُ فِي الْكِبَرِ، وَعَزَّ عَلَىٰ وَلِيِّهِ اسْتِنْقَاذُهُ مِنْهُ، فَتَغْيِيرُ الْعَوَائِدِ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ، يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَىٰ اسْتِجْدَادِ طَبِيعَةٍ ثَانِيَةٍ، وَالْخُرُوجُ عَنْ حُكْمِ الطَّبِيعَةِ عَسِرٌ جِدًّا.

وَيُجَنِّبُهُ الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ أَعْظَمَ مِمَّا يُجَنِّبُهُ السُّمَّ النَّاقِعَ؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ سَهَّلَ لَهُ سَبِيلَ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ أَفْسَدَ عَلَيْهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَرَمَهُ كُلَّ خَيْرٍ.

وَيُجَنِّبُهُ الْكَسَلَ وَالْبَطَالَةَ وَالدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ، بَلْ يَأْخُذُهُ بِأَضْدَادِهَا.

وَيُعَوِّدُهُ الِانْتِبَاهَ آخِرَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ وَقْتُ قَسْمِ الْغَنَائِمِ وَتَفْرِيقِ الْجَوَائِزِ؛ فَمُسْتَقِلٌّ، وَمُسْتَكْثِرٌ، وَمَحْرُومٌ، فَمَتَىٰ اعْتَادَ ذَلِكَ صَغِيرًا سَهُلَ عَلَيْهِ كَبِيرًا».

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أَوْلَىٰ النَّاسِ بِبِرِّكَ وَأَحَقُّهُمْ بِمَعْرُوفِكَ: أَوْلَادُكَ؛ فَإِنَّهُمْ أَمَانَاتٌ جَعَلَهُمُ اللهُ عِنْدَكَ، وَوَصَّاكَ بِتَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً صَالِحَةً لِأَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَكُلُّ مَا فَعَلْتَهُ مَعَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا فَإِنَّهُ

(١) «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار» (ص: ١٥٤).

مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ عَلَيْكَ، وَمِنْ أَفْضَلِ مَا يُقَرِّبُكَ إِلَىٰ اللهِ؛ فَاجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ، وَاحْتَسِبْهُ عِنْدَ اللهِ، فَكَمَا أَنَّكَ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ وَكَسَوْتَهُمْ وَقُمْتَ بِتَرْبِيَةِ أَبْدَانِهِمْ فَأَنْتَ قَائِمٌ بِالْحَقِّ مَأْجُورٌ؛ فَكَذَلِكَ -بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ- إِذَا قُمْتَ بِتَرْبِيَةِ قُلُوبِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَالْمَعَارِفِ الصَّادِقَةِ، وَالتَّوْجِيهِ لِلْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ضِدِّهَا.

فَالْآدَابُ الْحَسَنَةُ خَيْرٌ لِلْأَوْلَادِ حَالًا وَمَآلًا مِنْ إِعْطَائِهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَأَنْوَاعَ الْمَتَاعِ الدُّنْيَوِيِّ؛ لِأَنَّ بِالْآدَابِ الْحَسَنَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ يَرْتَفِعُونَ، وَبِهَا يَسْعَدُونَ، وَبِهَا يُؤَدُّونَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ، وَبِهَا يَجْتَنِبُونَ أَنْوَاعَ الْمَضَارِّ، وَبِهَا يَتِمُّ بِرُّهُمْ لِوَالِدِيهِمْ».

❀❀❀

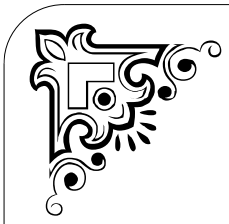

إِهْمَالُ الْأَوْلَادِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

الْأَمْرُ جِدٌّ لَا هَزْلَ فِيهِ.

قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ(١): «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِنُصْحِهِ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**».

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَكْبَرَ خَسَارَةٍ يَخْسَرُهَا الْمَرْءُ هِيَ أَنْ يَخْسَرَ نَفْسَهُ، وَيَخْسَرَ أَهْلَهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللهِ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وَسُوءُ التَّرْبِيَةِ لَهُ أَثَرٌ مُدَمِّرٌ عَلَىٰ الْأَبْنَاءِ وَالْوَالِدَيْنِ، وَعَلَىٰ الْمُجْتَمَعِ؛ بَلْ وَعَلَىٰ الْأَوْطَانِ.

«أَمَّا إِهْمَالُ الْأَوْلَادِ: فَضَرَرُهُ كَبِيرٌ، وَخَطَرُهُ خَطِيرٌ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ بُسْتَانٌ فَنَمَّيْتَهُ حَتَّىٰ اسْتَتَمَّتْ أَشْجَارُهُ، وَحَتَّىٰ أَيْنَعَتْ ثِمَارُهُ، وَتَزَخْرَفَتْ زُرُوعُهُ وَأَزْهَارُهُ، ثُمَّ أَهْمَلْتَهُ فَلَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ، وَلَمْ تَحْفَظْهُ، وَلَمْ تَسْقِهِ، وَلَمْ تُنَقِّهِ مِنَ الْآفَاتِ، وَتُعِدَّهُ لِلنُّمُوِّ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ؛ أَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ وَأَكْبَرِ

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢) من حديث مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه.

الْجَهْلِ؟! فَكَيْفَ تُهْمِلُ أَوْلَادَكَ الَّذِينَ هُمْ فِلْذَةُ كَبِدِكَ، وَثَمَرَةُ فُؤَادِكَ، وَنُسْخَةُ رُوحِكَ، وَالْقَائِمُونَ مَقَامَكَ حَيًّا وَمَيِّتًا الَّذِينَ بِسَعَادَتِهِمْ تَتِمُّ سَعَادَتُكَ، وَبِفَلَاحِهِمْ وَنَجَاحِهِمْ تُدْرِكُ خَيْرًا كَثِيرًا، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]»[1].

❀❀❀

(١) «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار» (ص: ١٥٤).

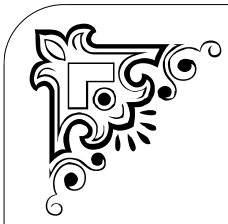

ثَمَرَاتُ الِاهْتِمَامِ بِتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ

لَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثَةُ آدَابٍ: أَمْرُهُمْ بِهَا - أَيْ: بِالصَّلَاةِ-، وَضَرْبُهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

وَقَالَ -أَيْضًا-(٣): «وَالصَّبِيُّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفًا فَوَلِيُّهُ مُكَلَّفٌ، لَا يَحِلُّ لَهُ تَمْكِينُهُ مِنَ الْمُحَرَّمِ؛ فَإِنَّهُ يَعْتَادُهُ، وَيَعْسُرُ فِطَامُهُ عَنْهُ، وَهَذَا أَصَحُّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ، وَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ يَرَهُ حَرَامًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ، فَلَمْ يُحَرِّمْ لُبْسَهُ لِلْحَرِيرِ كَالدَّابَّةِ، وَهَذَا مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ؛ فَإِنَّ الصَّبِيَّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفًا فَإِنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِلتَّكْلِيفِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، والبزار (٩٨٢٣) واللفظ له، وأورده ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٤٩٥) وفي «صحيح الجامع» (٤٠٢٦).

(٢) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٣٥٣).

وَلِهَذَا لَا يُمَكَّنُ مِنَ الصَّلَاةِ بِغَيْرِ وُضُوءٍ، وَلَا مِنَ الصَّلَاةِ عُرْيَانًا وَنَجِسًا، وَلَا مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، وَلَعِبِ الْقِمَارِ، وَاللِّوَاطِ».

وَقَالَ -أَيْضًا-(١): «وَإِذَا صَارَ ابْنَ عَشْرٍ ازْدَادَ قُوَّةً وَعَقْلًا وَاحْتِمَالًا لِلْعِبَادَاتِ، فَيُضْرَبُ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ كَمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذَا ضَرْبُ تَأْدِيبٍ وَتَمْرِينٍ، وَعِنْدَ بُلُوغِ الْعَشْرِ يَتَجَدَّدُ لَهُ حَالٌ أُخْرَىٰ يَقْوَىٰ فِيهَا تَمْيِيزُهُ وَمَعْرِفَتُهُ؛ وَلِذَلِكَ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَىٰ وُجُوبِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَأَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَىٰ تَرْكِهِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ أَبِي الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلٌ قَوِيٌّ جِدًّا، وَإِنْ رُفِعَ عَنْهُ قَلَمُ التَّكْلِيفِ بِالْفُرُوعِ فَإِنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ آلَةَ مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ، وَالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ نَظَرِ مِثْلِهِ وَاسْتِدْلَالِهِ كَمَا هُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ فَهْمِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَمَصَالِحِ دُنْيَاهُ، فَلَا عُذْرَ لَهُ فِي الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، مَعَ أَنَّ أَدِلَّةَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ يَتَعَلَّمُهَا».

فَيَنْبَغِي أَنْ يُغْرَسَ فِي قَلْبِ الصَّبِيِّ الْإِيمَانُ بِاللهِ ﷻ، وَهَذَا الْإِيمَانُ أَطْيَبُ وَأَكْمَلُ وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَجْرِ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا فِيمَا يَغْرِسُهُ الْأَبُ وَتَغْرِسُهُ الْأُمُّ فِي قَلْبِ الْوَلَدِ، وَهُوَ فَاتِحَةُ كُلِّ خَيْرٍ، وَأَسَاسُ كُلِّ طَاعَةٍ وَبِرٍّ، هُوَ أَصْلٌ أَصِيلٌ فِي اسْتِقَامَةِ الْمَرْءِ، وَاسْتِقَامَةِ الِابْنِ أَوِ الْبِنْتِ.

وَهَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُبَيِّنُ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيرٌ يُرْدِفُهُ خَلْفَهُ قَالَ: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ،**

---

(١) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص: ٤١٥-٤١٦).

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١). أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ(٢): «وَمَنْ حَفِظَ اللهَ فِي صِبَاهُ وَقُوَّتِهِ حَفِظَهُ اللهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، وَمَتَّعَهُ بِسَمْعِهِ، وَبَصَرِهِ، وَحَوْلِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَعَقْلِهِ؛ جَزَاءً وِفَاقًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا».

❀❀❀

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٥٤).

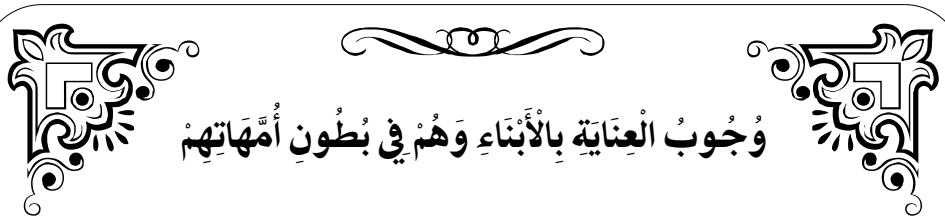

وُجُوبُ الْعِنَايَةِ بِالْأَبْنَاءِ وَهُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ

وَتَجِبُ الْعِنَايَةُ بِالِابْنِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؛ فَلَا يَجُوزُ إِيذَاؤُهُ، أَوِ التَّسَبُّبُ فِي ذَلِكَ، أَوِ التَّعَدِّي عَلَيْهِ بِإِسْقَاطٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَيُرَاعَىٰ، وَيُتَّقَىٰ اللهُ ﷻ فِيهِ، وَيَسْعَىٰ الْعَبْدُ سَعْيًا حَثِيثًا فِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ وَلَدِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْحُقُوقِ الَّتِي لِلْوَلَدِ، وَلَا يَجُوزُ لِلْأُمِّ أَنْ تُضْعِفَ نَفْسَهَا، أَوْ أَنْ تَمْتَنِعَ مِنَ الْغِذَاءِ الْمُفِيدِ لِطِفْلِهَا رَغْبَةً فِي إِضْعَافِهِ وَإِمَاتَتِهِ، وَهَذَا خُسْرَانٌ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، وَافْتِيَاتٌ وَتَعَدٍّ، وَإِضَاعَةٌ لِحَقٍّ، وَإِسَاءَةٌ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصِّحَّةُ الْإِنْجَابِيَّةُ بَيْنَ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَحَقِّ الطِّفْلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٥هـ| ٥-١-٢٠٢٤م.

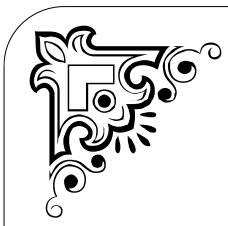

ظَاهِرَةُ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ

يُعَدُّ الْعُنْفُ ضِدَّ الْأَطْفَالِ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تُهَدِّدُ صِحَّةَ وَنُمُوَّ الْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ، وَتُؤَثِّرُ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ يُرْشِدُ أَتْبَاعَهُ إِلَى الْحِفَاظِ عَلَى أُسَرِهِمْ، وَأَلَّا يَلْمَسَ مِنْهُمْ أَفْرَادُهَا إِلَّا الرَّحْمَةَ بِمَفْهُومِهَا الْوَاسِعِ فِي التَّرْبِيَةِ.

وَيَتَّخِذُ الْعُنْفُ ضِدَّ الْأَطْفَالِ أَشْكَالًا مُتَعَدِّدَةً تَشْمَلُ الْإِيذَاءَ الْجَسَدِيَّ كَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ، وَالنَّفْسِيَّ كَالْإِهَانَةِ وَالْإِهْمَالِ، مِمَّا يَتْرُكُ أَثَرًا سَلْبِيًّا عَمِيقًا عَلَى الْأَطْفَالِ مِنَ النَّاحِيَتَيْنِ النَّفْسِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ ظَاهِرَةٌ مَرْفُوضَةٌ فِي الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَالْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ؛ فَقَدْ دَلَّنَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، وَهَذَا الْأَمْرُ قَدْ نُخَالِفُهُ كَثِيرًا -بَلْ نَحْنُ نُخَالِفُهُ كَثِيرًا-: نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُضْرَبَ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ إِذَا تَرَكَهَا حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ عَشْرِ سَنَوَاتٍ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا** -أَيْ: عَلَىٰ تَرْكِهَا- **لِعَشْرٍ**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود: (١/ ١٣٣، رقم ٤٩٥)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديث صححه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (١/ ٢٦٦، رقم ٢٤٧)، وله شاهد من =

فَمَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ أَمْرًا جَازِمًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ الصَّلَاةُ، وَلَيْسَتْ بِفَرْضٍ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَوَّدَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّهُ يُؤْمَرُ أَمْرًا رَفِيقًا فِيهِ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ لَا يَصِلُ إِلَىٰ حَدِّ الضَّرْبِ، وَلَكِنْ لَا يُضْرَبُ إِلَّا إِذَا بَلَغَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ.

يَقُولُ النَّفْسِيُّونَ: «إِنَّهُ لَا عُصَابَ فِي الْكِبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ» يَعْنِي: لَنْ تَجِدَ أَحَدًا أُصِيبَ بِالِاكْتِئَابِ، أَوْ بِالْفِصَامِ، أَوْ بِالْجُنُونِ، أَوْ بِالْهَلَاوِسِ السَّمْعِيَّةِ أَوِ الْبَصَرِيَّةِ أَوِ الْحِسِّيَّةِ، بِأَيِّ مَرَضٍ نَفْسِيٍّ؛ لَنْ يُصَابَ بِهِ عَلَىٰ كِبَرٍ إِلَّا وَقَدْ بَدَأَتِ الْإِصَابَةُ بِهِ فِي الصِّغَرِ، فِي أَيِّ سِنٍّ؟ إِلَىٰ سِتِّ سَنَوَاتٍ.(*).

الْإِنْسَانُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَابَ بِالْمَرَضِ النَّفْسِيِّ فِي كِبَرِهِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ أُصُولُ هَذَا الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ قَدْ تَحَصَّلَ عَلَيْهَا فِي صِغَرِهِ.

وَحَدَّدَهَا زَعِيمُ هَؤُلَاءِ (سِيجْمُونْد فُرُويد) بِسِتِّ سَنَوَاتٍ؛ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ السِّتَّ سَنَوَاتٍ الْأُولَىٰ خَطِيرَةٌ جِدًّا فِي حَيَاةِ أَيِّ طِفْلٍ.

عِنْدَمَا تَأْتِي القَسْوَةُ، وَيَأْتِي الضَّرْبُ فِي هَذِهِ السِّنِّ الْبَاكِرَةِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ بِمَفْهُومِ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(٢).

=

حديث: سبرة بن معبد رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «تَوَقَّفْ!».

(٢) تقدم تخريجه.

لَمْ يَأْتِ الضَّرْبُ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ الصَّلَاةُ.

وَتَرْكُ الصَّلَاةِ هُوَ أَكْبَرُ كَبِيرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَتَيْنِ هِيَ أَمْرٌ قَلْبِيٌّ يُقِرُّ بِهِ الْقَلْبُ، وَيَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ.

وَأَمَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ فَهُوَ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْجَسَدِ، لَيْسَ هُنَاكَ خَطَأٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الطِّفْلُ - وَهُوَ دُونَ العَاشِرَةِ- أَكْبَرَ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَمَعَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِالضَّرْبِ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ إِلَّا عِنْدَ بُلُوغِ الْعَشْرِ.

يَقُولُ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ**»: مُجَرَّدُ أَمْرٍ، مَعَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ مِنَ التَّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ.

وَلَكِنَّ الضَّرْبَ هَاهُنَا عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ مَمْنُوعٌ بِنَصِّ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ**»، ثُمْ: «**وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ**».

يَأْتِي هَذَا الرَّجُلُ -وَهُوَ ضَالٌّ مُنْحَرِفٌ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ (سِيجْمُونْد فُرُويد)- يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا عُصَابَ فِي الْكِبَرِ إِلَّا بِعُصَابٍ فِي الصِّغَرِ»، وَيُحَدِّدُ السِّتَّ سَنَواتٍ الأُولَىٰ.

نَقُولُ لَهُ: إِنْ كُنْتَ قَدِ اهْتَدَيْتَ لِهَذَا، وَكَانَ صَحِيحًا بِالْفِطْرَةِ أَوْ بِوَسَائِلِ الْعِلْمِ الحَدِيثِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ سَنَةٍ ﷺ.

إِذَنْ؛ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدمَا يُحَدِّدُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا يَحْمِي الْإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ الْبَوَادِرِ الَّتِي تُؤَدِّي بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ.

وَإِذَنْ؛ فَهَذِهِ الْقَسْوَةُ الْمُفْرَطُ فِيهَا، وَهَذِهِ السُّلُوكِيَّاتُ الْخَاطِئَةُ تُؤَثِّرُ عَلَىٰ النَّفْسِيَّاتِ الْغَضَّةِ الطَّرِيَّةِ!(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ دَرْسِ: «سُلُوكِيَّاتٌ خَاطِئَةٌ».

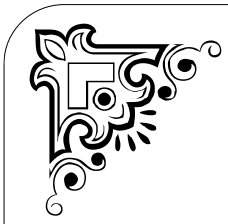

مَظَاهِرُ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ

إِنَّ مَظَاهِرَ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ مُتَعَدِّدَةٌ، وَصُوَرُهُ مُؤْلِمَةٌ.

*** مِنْهَا: الْعُنْفُ اللَّفْظِيُّ أَوِ النَّفْسِيُّ: وَهُوَ اسْتِخْدَامُ الْأَلْفَاظِ الْبَذِيئَةِ الَّتِي يَتَلَفَّظُ بِهَا الْوَالِدَانِ أَوْ غَيْرُهُمَا؛ مِنْ سَبٍّ وَشَتْمٍ، وَتَوْبِيخٍ لِلْأَبْنَاءِ، وَتَهْدِيدٍ وَإِهَانَةٍ، وَيُعْتَبَرُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعُنْفِ مِنْ أَكْثَرِ الْمَظَاهِرِ تَأْثِيرًا عَلَى نَفْسِيَّةِ الطِّفْلِ؛ حَيْثُ يُفْقِدُهُ قِيمَتَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَجِيرَانِهِ.**

وَالنَّاظِرُ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَجِدُ أَنَّهُ تَحَاشَى هَذَا النَّوْعَ؛ خَاصَّةً مَعَ الضُّعَفَاءِ وَالصِّغَارِ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أُفٍّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا؟!»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هِيَ أَخْلَاقُ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَلَّا يَقُولَ لِوَلَدِهِ مِنْ صُلْبِهِ عَشْرَ سِنِينَ.. أَلَّا يَقُولَ لَهُ: أُفٍّ، خِلَالَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنَ الزَّمَانِ؟!

فَأَنَسٌ لَيْسَ بِوَلَدِهِ، وَهَذَا أَدْعَىٰ لِأَنْ يُعَامِلَهُ بِمَا لَمْ يُعَامِلْ بِهِ وَلَدَهُ؛ وَلَكِنَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

رَسُولُ اللهِ ﷺ.

«**أُفٍّ**»: كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ.

لَمْ تَصْدُرْ مِنْهُ قَطُّ عَشْرَ سِنِينَ، وَأَنَسٌ كَانَ صَبِيًّا بَعْدُ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ! لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّىٰ أَمُرَّ عَلَىٰ صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ** -وَالتَّصْغِيرُ لِلتَّدْلِيلِ- **! أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟!**».

قَالَ: قُلْتُ: «نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ»(١).

فِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ كَمَالِ خُلُقِهِ ﷺ، وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ، وَحِلْمِهِ وَصَفْحِهِ -بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي وَنَفْسِي ﷺ-.(*).

*** وَمِنْ صُوَرِ الْعُنْفِ: الْعُنْفُ الْجَسَدِيُّ: وَهُوَ الْإِيذَاءُ الْبَدَنِيُّ؛ سَوَاءٌ بِالْيَدِ، أَوْ بِاسْتِخْدَامِ الْعَصَا أَوْ أَدَاةٍ حَادَّةٍ، وَغَالِبًا مَا تَتْرُكُ آثَارًا عَلَى جَسَدِ الطِّفْلِ يَصْعُبُ إِخْفَاؤُهَا، وَهَذَا الْعُنْفُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَشْكَالِ وُضُوحًا، وَالْمُسْتَقْرِئُ لِحَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ يَرَى انْعِدَامَ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْعُنْفِ فِي مُعَامَلَاتِهِ ﷺ**؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِم (٢٣١٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الشَّمَائِلِ الْمُحَمَّدِيَّةِ» (مُحَاضَرَة ٥٦)، الثُّلَاثَاءُ ٢٦ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٤-٦-٢٠١٤م.

ﷺ قَالَتْ: «**مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا بِيَدِهِ قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمُ مِنْ صَاحِبِهِ؛ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ ﷻ**»(١). رَوَاهُ مُسلِمٌ.(*).

* **وَمِنْ أَبْشَعِ صُوَرِ الْعُنْفِ وَمَظَاهِرِهِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ: الْعُنْفُ الْجِنْسِيُّ: وَهُوَ اسْتِخْدَامُ الْأَطْفَالِ -سَوَاءٌ كَانُوا ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا- لِإِشْبَاعِ الرَّغْبَةِ الْجِنْسِيَّةِ بِالْإِكْرَاهِ أَوِ الْخَدِيعَةِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنْ إِيذَاءٍ لِلطِّفْلِ وَانْتِهَاكٍ لِخُصُوصِيَّتِهِ، كَمَا لَا يَخْفَى أَنَّهُ أَمَارَةٌ عَلَى انْسِلَاخِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، وَدَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ؛ فَيَجِبُ حِمَايَةُ الْأَطْفَالِ مِنْ مَرَضَى الشُّذُوذِ الْجِنْسِيِّ.**

«**فِي مُقْتَبَلِ عُمُرِ الطِّفْلِ يَجِبُ أَنْ يَحْرِصَ الْأَبُ عَلَىٰ حِمَايَةِ وَلَدِهِ مِنَ الشَّاذِّينَ، وَيَحْذَرَ إِهْمَالَ ذَلِكَ**؛ فَقَدِ اعْتَرَفَ أَحَدُ الشَّاذِّينَ الْعَرَبِ، وَبَاحَ بِسَبَبِ انْحِرَافِهِ وَشُذُوذِهِ؛ حَيْثُ كَانَ أَبَوَاهُ يُهْمِلَانِهِ بِانْشِغَالِهِمَا خَارِجَ الْبَيْتِ وَهُوَ فِي سِنِّ الطُّفُولَةِ؛ مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ وُقُوعِهِ ضَحِيَّةً لِأَحَدِ رُفَقَاءِ السُّوءِ؛ حَيْثُ كَانَ يَجْهَلُ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ.

وَلَا بُدَّ لِلْأَبِ أَنْ يَحْذَرَ -أَيْضًا- كُلَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللهَ مِنَ الْفُسَّاقِ وَنَحْوِهِمْ؛ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْأَقْرِبَاءِ، أَوِ الْجِيرَانِ، أَوِ الْأَسَاتِذَةِ؛ فَإِنَّ الْإِحْصَاءَاتِ

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: (٤/ ١٨١٤، رقم ٢٣٢٨)، والحديث أصله في «الصحيحين» بنحوه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَهْلُ الْقِبْلَةِ» - الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٧ هـ| ٢٠- ٥- ٢٠١٦م.

فِي أَمريكَا تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ الِاعْتِدَاءَاتِ الْجِنْسِيَّةِ عَلَىٰ الْأَطْفَالِ تَقَعُ مِنْ أَفْرَادٍ يَعْرِفُونَهُمْ؛ كَأُسْتَاذِ الْمَدْرَسَةِ، أَوْ طَبِيبِ الْعَائِلَةِ، أَوْ مُسْتَشَارِ الْمُخَيَّمِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدَ الْأَبُ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَرِعَايَتِهِ، فَلَا يَتْرُكُ مَجَالًا لِخَلْوَةِ الْوَلَدِ بِأَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مَهْمَا كَانَتِ الظُّرُوفُ.

وَرُبَّمَا يَحْدُثُ الِاعْتِدَاءُ الْجِنْسِيُّ مِنْ قِبَلِ طِفْلٍ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنًّا؛ فَإِنَّ بَعْضَ الْأَطْفَالِ يَنْضُجُونَ جِنْسِيًّا فِي مَرْحَلَةٍ مُبَكِّرَةٍ، كَمَا أَنَّهُ بِالْإِمْكَانِ قِيَامُ عَلَاقَاتٍ جِنْسِيَّةٍ بَيْنَ الْأَوْلَادِ قَبْلَ الْبُلُوغِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ اخْتِيَارَ الْأَبِ لِأَصْدِقَاءِ الْوَلَدِ مِمَّنْ هُمْ فِي سِنِّهِ أَوْ أَصْغَرُ سِنًّا يُعَدُّ اخْتِيَارًا حَسَنًا مَأْمُونًا؛ فَلَا يَتْرُكُهُ يُصَاحِبُ الْكِبَارَ مِنَ الصِّبْيَانِ إِلَّا أَنْ يَضْمَنَ وَيَتَأَكَّدَ مِنِ اسْتِقَامَتِهِمْ وَحُسْنِ تَرْبِيَتِهِمْ.

وَيَتَنَبَّهُ الْأَبُ لِلتَّقْلِيلِ مِنْ خَلْوَةِ الْوَلَدِ قَبْلَ سِنِّ الْبُلُوغِ بِغَيْرِهِ مِنَ الصِّبْيَانِ، وَيَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ عَدَدُهُمْ ثَلَاثَةً أَوْ يَزِيدُونَ؛ لِلتَّقْلِيلِ مِنِ احْتِمَالِ غِوَايَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ؛ فَالشَّيْطَانُ أَقْرَبُ لِلِاثْنَيْنِ مِنْهُ إِلَىٰ الثَّلَاثَةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ انْتِشَارِ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ، وَجُرْأَةِ أَهْلِهَا: الْمُيُوعَةُ، وَالتَّخَنُّثُ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الصِّبْيَانِ.

فَمِنْ مَظَاهِرِ هَذَا التَّمَيُّعِ وَالِانْحِلَالِ: إِطَالَةُ الْوَلَدِ لِشَعْرِهِ تَشَبُّهًا بِالنِّسَاءِ، وَلُبْسُ الْبَنْطَلُونِ الضَّيِّقِ الْوَاصِفِ لِلْبَدَنِ، أَوْ لُبْسُ بَعْضِ الْمَلَابِسِ الْخَاصَّةِ بِالشَّاذِّينَ، وَجَرُّ الذُّيُولِ، وَالتَّكَسُّرُ فِي الْمِشْيَةِ، وَالْخُضُوعُ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّرَدُّدُ عَلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْمَشْبُوهَةِ.

فَإِذَا ظَهَرَ عَلَىٰ الْوَلَدِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْمُنْحَرِفَةِ؛ وَجَبَ عَلَىٰ الْأَبِ الْحَذَرُ مِنِ احْتِمَالِ انْحِرَافِ وَلَدِهِ؛ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ يَجْهَلُ قُبْحَ هَذِهِ الْقَضَايَا؛ فَإِنَّ الْمُنْحَرِفِينَ يَنْتَظِرُونَ رُؤْيَةَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ لِيَنْقَضُّوا عَلَىٰ فَرِيسَتِهِمْ بِشَتَّىٰ الْوَسَائِلِ وَالْحِيَلِ الْمَاكِرَةِ.

وَلَا بُدَّ لِلْأَبِ مِنْ تَرْبِيَةِ وَلَدِهِ الصَّغِيرِ عَلَىٰ الرُّجُولَةِ وَالْخُشُونَةِ؛ خَاصَّةً إِنْ كَانَ الْوَلَدُ جَمِيلَ الْمَطْلَعِ، فَيُعَوِّدُهُ الْخُشُونَةَ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ، وَيُعَوِّدُهُ الرِّيَاضَةَ الْقَوِيَّةَ الَّتِي تَبْنِي جِسْمَهُ وَتُخَشِّنُ جِلْدَهُ، وَلَا بَأْسَ أَنْ يُعَوِّدَهُ حِلَاقَةَ رَأْسِهِ إِنْ كَانَ شَعْرُهُ سَبَبَ جَمَالِهِ؛ اقْتِدَاءً بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي التَّعَامُلِ مَعَ الرَّجُلِ الْجَمِيلِ الَّذِي افْتُتِنَ بِهِ النِّسَاءُ.

وَيُعَوِّدُ وَلَدَهُ لُبْسَ الْمَلَابِسِ وَالثِّيَابِ الْفَضْفَاضَةِ، وَتَغْطِيَةَ رَأْسِهِ تَشَبُّهًا بِالْكِبَارِ الْبَالِغِينَ، وَيُحَذِّرُهُ مِنْ إِسْبَالِ الثَّوْبِ كَالنِّسَاءِ، وَلُبْسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ؛ فَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ التَّخَنُّثِ وَالْمُيُوعَةِ، إِلَىٰ جَانِبِ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَىٰ الرِّجَالِ.

وَإِنْ كَانَ الْأَبُ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ وَالْغِنَىٰ فَإِنَّ وَاجِبَهُ فِي حِفْظِ وَلَدِهِ آكَدُ؛ لِأَنَّ أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ فِي الْعَادَةِ مُرَفَّهُونَ، وَيَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَثَرُ النِّعْمَةِ؛ مِنْ نُعُومَةِ الْبَدَنِ، وَصَفَاءِ اللَّوْنِ، وَطِيبِ الرَّائِحَةِ، وَحُسْنِ ارْتِدَاءِ الثِّيَابِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ أَرْغَبَ وَأَدْعَىٰ لِوُقُوعِهِمْ تَحْتَ أَيْدِي الْمُنْحَرِفِينَ؛ لِهَذَا فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يُحَذِّرُ مِنْ مُجَالَسَةِ أَبْنَاءِ الْأُسَرِ الْمُتْرَفَةِ.

يَقُولُ الْحَسَنُ بْنُ ذَكْوَانَ: «وَلَا تُجَالِسُوا أَبْنَاءَ الْأَغْنِيَاءِ فَإِنَّ لَهُمْ صُوَرًا كَصُوَرِ

النِّسَاءِ، وَهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ الْعَذَارَىٰ».

كَمَا أَنَّ احْتِمَالَ وُقُوعِ الْوَلَدِ فَرِيسَةً لِأَحَدِ الشَّاذِّينَ فِي الْأُسَرِ الْغَنِيَّةِ أَكْبَرُ مِنْهُ فِي الْأُسَرِ الْمُتَوَسِّطَةِ الْحَالِ أَوِ الْفَقِيرَةِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأُسَرَ الْغَنِيَّةَ فِي الْعَادَةِ يُشَارِكُهَا فِي الْمَسْكَنِ خَدَمٌ وَعُمَّالٌ وَأَفْرَادٌ مِنْ غَيْرِ الْأُسْرَةِ يُقَدِّمُونَ الْخِدْمَةَ لِلْأُسْرَةِ، وَيَقُومُونَ عَلَىٰ رِعَايَةِ شُؤُونِهَا، وَعَادَةً يَنْتَمِي هَؤُلَاءِ الْخَدَمُ إِلَىٰ ثَقَافَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ الْجَهْلُ وَقِلَّةُ الدِّينِ، فَنَادِرًا مَا يَكُونُ مِنْ بَيْنِهِمُ الصَّالِحُ الْمُسْتَقِيمُ، إِلَىٰ جَانِبِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ مِنَ الْعُزَّابِ، أَوِ الْمُغْتَرِبِينَ عَنْ أَهْلِيهِمْ، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ مُؤْتَمَنُونَ عَلَىٰ الْأَوْلَادِ؛ بَلْ رُبَّمَا كَانُوا مُؤْتَمَنِينَ حَتَّىٰ عَلَىٰ النِّسَاءِ وَالْبَنَاتِ، فَلَا يَجِدُ الْأَبُ غَضَاضَةً عِنْدَمَا يَجِدُ وَلَدَهُ جَالِسًا يَتَحَدَّثُ فِي غُرْفَةِ الْخَادِمِ، وَلَا يَأْبَهُ إِذَا خَلَا الْبَيْتُ لِلْخَدَمِ وَالْأَوْلَادِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِهْمَالِ وَالتَّقْصِيرِ مِنَ الْأَبِ يُعَدُّ مَدْعَاةً لِوُقُوعِ الْفَاحِشَةِ بِالْوَلَدِ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الْأَبِ، وَرُبَّمَا اسْتَمَرَّ وُقُوعُ الْفَاحِشَةِ بِالْوَلَدِ فَتْرَةً طَوِيلَةً تَحْتَ طَائِلَةِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، أَوِ الْإِقْنَاعِ، أَوْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مَاكِرَةٍ خَبِيثَةٍ؛ خَاصَّةً وَأَنَّ الْوَلَدَ الَّذِي لَمْ يُعْنَ وَالِدُهُ بِتَرْبِيَتِهِ يَقِلُّ فَهْمُهُ لِلْأُمُورِ، فَلَا يُدْرِكُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَأِ»[1].

كَمَا حَدَثَ مَعَ ذَلِكَ الشَّابِّ الَّذِي تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُ، وَالَّذِي كَانَ صَرَّحَ بِأَنَّهُ كَانَ فَرِيسَةً لِأَحَدِ الْمُنْحَرِفِينَ بِسَبَبِ إِهْمَالِ وَالِدَيْهِ، وَجَهْلِهِ بِمَبَادِئِ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ.

---

(١) «التربية الجنسية» (ص: ١٧-١٨).

وَهَذَا الْأَمْرُ مِنْ أَهَمِّ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَرِعَايَتُهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ بِالذَّاتِ؛ فَإِنَّ هَذَا الشُّذُوذَ صَارَتْ مُؤَسَّسَاتٌ وَدُوَلٌ.. وَصَارَتْ جَمْعِيَّاتٌ وَمَرَاكِزُ تَدْعُو إِلَيْهِ وَتُزَيِّنُهُ، وَتَبُثُّهُ بَيْنَ النَّاسِ يَسْرِي فِي جَسَدِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ سَرَيَانَ الْمَرَضِ الْخَبِيثِ فِي الْجَسَدِ الْحَيِّ.

فَعَلَىٰ كُلِّ أَبٍ أَنْ يُرَاعِيَ ذَلِكَ، وَأَنْ يُلَاحِظَ وَلَدَهُ، وَأَنْ يَقُومَ عَلَىٰ حِيَاطَتِهِ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهِ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصِّحَّةُ الْإِنْجَابِيَّةُ بَيْنَ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَحَقِّ الطِّفْلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٥هـ| ٥-١-٢٠٢٤م.

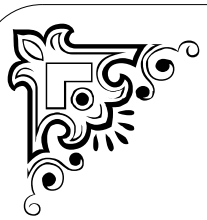

رِفْقُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَطْفَالِ

لَقَدْ كَانَ الرِّفْقُ مَعَ الْأَطْفَالِ شَاخِصًا مُجَسَّدًا فِي مُعَامَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ؛ فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَرْضَعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ، فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ وَلَدُهُ إِبْرَاهِيمُ، فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ أَنَسٌ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ -يَعْنِي: إِبْرَاهِيمَ بْنَ النَّبِيِّ ﷺ- وَهُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَاللهِ! إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(*).

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ مُرَّةَ أَنَّهُ قَالَ: «خَرَجْنَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «السَّلَامُ مَعَ النَّفْسِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْبِيئَةِ وَالْكَوْنِ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي ١٤٤٤هـ| ٤-١١-٢٠٢٢م.

مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَدُعِينَا إِلَىٰ طَعَامٍ فَإِذَا حُسَيْنٌ يَلْعَبُ فِي الطَّرِيقِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَ الْقَوْمِ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَمُرُّ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَاهُنَا، يُضَاحِكُهُ حَتَّىٰ أَخَذَهُ، فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ فِي ذَقَنِهِ وَالْأُخْرَىٰ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ اعْتَنَقَهُ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، سِبْطَانِ مِنَ الْأَسْبَاطِ»(١). هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَسَلَكَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

«سِبْطَانِ»: «السِّبْطُ»: وَلَدُ الْبِنْتِ، مَأْخَذُهُ مِنَ «السَّبَطِ» -بِالْفَتْحِ-: وَهِيَ شَجَرَةٌ لَهَا أَغْصَانٌ كَثِيرَةٌ وَأَصْلُهَا وَاحِدٌ، كَأَنَّ الْوَالِدَ بِمَنْزِلَةِ الشَّجَرَةِ، وَكَأَنَّ الْأَوْلَادَ بِمَنْزِلَةِ الْأَغْصَانِ.

قَالَ الْقَاضِي(٢): «السِّبْطُ»: وَلَدُ الْوَلَدِ؛ أَيْ: هُوَ مِنْ أَوْلَادِ أَوْلَادِهِ(٣).

---

(١) **أخرجه البخاري في** «الْأَدَب الْمُفْرَد» (رَقْم ٣٦٤)، وأَخْرَجَهُ أيضا التِّرْمِذِيّ (رَقْم ٣٧٧٥)، وابْن مَاجَه (رَقْم ١٤٤) بلفظ: «... أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا،...» الحَدِيث، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيّ في «صَحِيح الْأَدَب الْمُفْرَد» (رَقْم ٢٧٩)، وَفِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَة» (٣/ رَقْم ١٢٢٧).

(٢) هُوَ القاضِي المُفَسِّرُ نَاصِرُ الدِّينِ عَبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ أَبُو الْخَيْرِ الْبَيْضَاوِيُّ، (المُتَوَفَّي ٦٨٥هـ)، انظر ترجمتَه: «طبقاتُ الشَّافِعِيةِ الكبرَىٰ» للسُّبْكِيِّ (٨/ ترجمة ١١٥٣)، و«الأعلام» للزِّرِكْلِيِّ (٤/ ١١٠).

(٣) «تُحْفَةُ الأَبْرَارِ شَرحُ مَصَابِيحِ السُّنَّةِ» للبَيْضَاوِيِّ (٣/ ٥٦٢، رَقْم ١٥٧٠)، وانظر: «الصِّحَاحَ» للجَوْهَرِيِّ -مادة: سبط- (٣/ ١١٢٩).

«حُسَيْنٌ يَلْعَبُ فِي الطَّرِيقِ فَأَسْرَعَ ﷺ أَمَامَ الْقَوْمِ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ»: يُرِيدُ أَنْ يَمْنَعَ الْحُسَيْنَ مِنَ الْحَرَكَةِ.

«جَعَلَ الْغُلَامَ يَمُرُّ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَاهُنَا» أَيْ: يُحَاوِلُ الْفِرَارَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ: تَوَاضُعُ النَّبِيِّ ﷺ وَشَفَقَتُهُ وَرَحْمَتُهُ بِالْأَطْفَالِ، وَصِلَتُهُ بِأَرْحَامِهِ.

وَفِيهِ: مُضَاحَكَةُ الصَّبِيِّ، وَمُمَازَحَتُهُ وَاعْتِنَاقُهُ، وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِ، وَاسْتِحْبَابُ مُلَاطَفَةِ الصِّبِيِّ، وَاسْتِحْبَابُ مُدَاعَبَتِهِ؛ رَحْمَةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ، وَبَيَانُ خُلُقِ التَّوَاضُعِ مَعَ الْأَطْفَالِ وَغَيْرِهِمْ.

فَهَذا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ﷺ مَعَ عَظِيمِ مَسْؤُولِيَّتِهِ، وَمَعَ جَلِيلِ مَا نَاطَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِعُنُقِهِ، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ وَأَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ يَجِدُ فِي صَدْرِهِ فُسْحَةً -وَمَا أَوْسَعَ صَدْرَهُ ﷺ- لِكَيْ يُلَاطِفَ حُسَيْنًا عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ، وَهِيَ صُورَةٌ مُحَبَّبَةٌ، **فِيهَا شَفَقَةٌ، وَفِيهَا رِقَّةٌ، وَفِيهَا رَحْمَةٌ، وَفِيهَا رَأْفَةٌ** -فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ مَنْ وَصَفَهُ رَبُّهُ بِأَنَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ-.(*).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَبْصَرَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، **فَقَالَ**: «إِنَّ لِي مِنَ الْوَلَدِ عَشَرَةً مَا قَبَّلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ كِتَاب: «شَرْحُ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (ص: ١٦٣٦-١٦٤٠).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنه مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.(*).

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيّ (رَقْم ٥٩٩٧)، ومُسْلِم (رَقْم ٢٣١٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «أَهْلُ الْقِبْلَةِ» - الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٧ هـ| ٢٠- ٥- ٢٠١٦م.

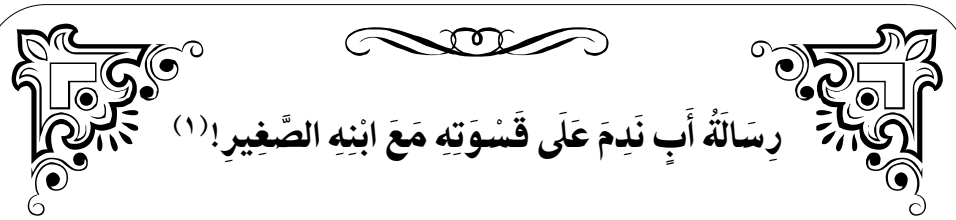

رِسَالَةُ أَبٍ نَدِمَ عَلَى قَسْوَتِهِ مَعَ ابْنِهِ الصَّغِيرِ![1]

وَهَذِهِ رِسَالَةٌ كَتَبَهَا أَبٌ لِابْنِهِ عَلَىٰ إِثْرِ قَسْوَةٍ بَدَرَتْ مِنْهُ، وَعُنْفٍ ظَهَرَ عَلَيْهِ -عَلَىٰ الْأَبِ لَا عَلَىٰ الطِّفْلِ-.

كَتَبَ: يَا بُنَيَّ! أَكْتُبُ هَذَا وَأَنْتَ رَاقِدٌ أَمَامِي عَلَىٰ فِرَاشِكَ، سَادِرٌ فِي نَوْمِكَ، وَقَدْ تَوَسَّدْتَ كَفَّكَ الصَّغِيرَ، وَانْعَقَدَتْ خُصُلَاتُ شَعْرِكَ الذَّهَبِيِّ فَوْقَ جَبْهَتِكَ الْغَضَّةِ.

فَمُنْذُ لَحَظَاتٍ خَلَتْ، كُنْتُ جَالِسًا إِلَىٰ مَكْتَبِي أُطَالِعُ الْكِتَابَ، وَإِذَا بِفَيْضٍ غَامِرٍ مِنَ النَّدَمِ يَطْغَىٰ عَلَيَّ، فَمَا تَمَالَكْتُ إِلَّا أَنْ تَسَلَّلْتُ إِلَىٰ مَخْدَعِكَ، وَوَخْزُ الضَّمِيرِ يُصْلِينِي نَارًا.

وَإِلَيْكَ الْأَسْبَابَ يَا بُنَيَّ الَّتِي أَشَاعَتِ النَّدَمَ فِي نَفْسِي:

أَتَذْكُرُ صَبَاحَ الْيَوْمِ؟

لَقَدْ عَنَّفْتُكَ وَأَنْتَ تَرْتَدِي ثِيَابَكَ؛ تَأَهُّبًا لِلذَّهَابِ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ؛ لِأَنَّكَ عَزَفْتَ

---

(١) مقال بعنوان: «بابا ينسىٰ» للكاتب لفنجستون لارند، نشر في افتتاحية جريدة بيبولز هوم جورنال الأمريكية، ثم ترجم إلىٰ عدة لغات ونشر في مئات الصحف والنشرات.

عَنْ غَسْلِ يَدَيْكَ، وَاسْتَعَضْتَ عَنْ ذَلِكَ بِمَسْحِهِمَا بِالْمِنْشَفَةِ.

وَلُمْتُكَ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تُنَظِّفْ حِذَاءَكَ كَمَا يَنْبَغِي، وَصِحْتُ بِكَ مُغْضَبًا؛ لِأَنَّكَ نَثَرْتَ بَعْضَ الْأَدَوَاتِ عَفْوًا عَلَىٰ الْأَرْضِ!

وَعَلَىٰ مَائِدَةِ الْإِفْطَارِ أَحْصَيْتُ لَكَ الْأَخْطَاءَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً؛ فَقَدْ أَرَقْتَ حِسَاءَكَ، وَالْتَهَمْتَ طَعَامَكَ، وَأَسْنَدْتَ مِرْفَقَيْكَ إِلَىٰ حَافَةِ الْمَائِدَةِ، وَوَضَعْتَ نَصِيبًا مِنَ الزُّبْدِ عَلَىٰ خُبْزِكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الذَّوْقُ!

وَعِنْدَمَا وَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ مَدْرَسَتِكَ، وَاتَّخَذْتُ أَنَا الطَّرِيقَ إِلَىٰ مَحَطَّةِ الْقِطَارِ، الْتَفَتَّ إِلَيَّ وَلَوَّحْتَ لِي بِيَدِكَ الصَّغِيرَةِ، وَهَتَفْتَ: «مَعَ السَّلَامَةِ يَا أَبِي!!».

وَقَطَّبْتُ لَكَ جَبِينِي، وَلَمْ أُجِبْكَ، ثُمَّ أَعَدْتُ الْكَرَّةَ فِي الْمَسَاءِ؛ فَفِيمَا كُنْتُ أَعْبُرُ الطَّرِيقَ؛ لَمَحْتُكَ جَاثِيًا عَلَىٰ رُكْبَتَيْكَ تَلْعَبُ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَىٰ جَوْرَبَيْكَ ثُقُوبٌ، فَأَذْلَلْتُكَ أَمَامَ أَقْرَانِكَ؛ إِذْ سَيَّرْتُكَ أَمَامِي إِلَىٰ الْمَنْزِلِ مُغْضَبًا بَاكِيًا، إِنَّ الْجَوَارِبَ -يَا بُنَيَّ- غَالِيَةُ الثَّمَنِ، وَلَوْ كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشْتَرِيهَا؛ لَتَوَفَّرْتَ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا.

أَفَتَتَصَوَّرُ هَذَا يَحْدُثُ مِنْ أَبٍ؟!!

ثُمَّ أَتَذَكَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَا أُطَالِعُ فِي غُرْفَتِي: كَيْفَ جِئْتَ تَجُرُّ قَدَمَيْكَ مُتَخَاذِلًا، وَفِي عَيْنَيْكَ عِتَابٌ صَامِتٌ، فَلَمَّا نَحَّيْتُ الْكِتَابَ عَنِّي وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي لِقَطْعِكَ عَلَيَّ حَبْلَ خَلْوَتِي، وَقَفْتَ بِالْبَابِ مُتَرَدِّدًا، فَصِحْتُ بِكَ أَسْأَلُكَ: مَاذَا تُرِيدُ؟!!

لَمْ تَقُلْ شَيْئًا، وَلَكِنَّكَ -يَا بُنَيَّ- انْدَفَعْتَ إِلَيَّ، وَطَوَّقْتَ عُنُقِي بِذِرَاعَيْكَ

وَقَبَّلْتَنِي، وَشَدَدْتَ ذِرَاعَيْكَ الصَّغِيرَتَيْنِ حَوْلِي فِي عَاطِفَةٍ أَوْدَعَهَا اللهُ قَلْبَكَ الطَّاهِرَ مُزْدَهِرَةً، لَمْ يَقْوَ حَتَّىٰ الْإِهْمَالُ عَلَىٰ أَنْ يَذْوِيَ بِهَا.

ثُمَّ انْطَلَقْتَ مُهَرْوِلًا، تَصْعَدُ الدَّرَجَ إِلَىٰ غُرْفَتِكَ.

يَا بُنَيَّ! لَقَدْ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ بِبُرْهَةٍ وَجِيزَةٍ، أَنِ انْزَلَقَ الْكِتَابُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي، وَعَصَفَ بِنَفْسِي أَلَمٌ عَاتٍ!!

يَا اللهُ! إِلَىٰ أَيْنَ كَانَتِ الْعَادَةُ تَسِيرُ بِي؟!!

عَادَةُ التَّفْتِيشِ عَنِ الْأَخْطَاءِ! عَادَةُ اللَّوْمِ وَالتَّأْنِيبِ!!

أَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءَكَ مِنِّي عَلَىٰ أَنَّكَ مَا زِلْتَ طِفْلًا؟!!

كَلَّا، لَمْ يَكُنْ مَرَدُّ الْأَمْرِ أَنِّي لَا أُحِبُّكَ، بَلْ كَانَ مَرَدُّهُ أَنِّي طَالَبْتُكَ بِالْكَثِيرِ، بِرَغْمِ طُفُولَتِكَ!!

كُنْتُ أَقِيسُكَ بِمِقْيَاسِ سِنِّي، وَخِبْرَتِي، وَتَجَارِبِي!!

وَلَكِنَّكَ كُنْتَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِكَ تَعْفُو وَتُغْضِي، وَكَانَ قَلْبُكَ الصَّغِيرُ كَبِيرًا كِبَرَ الْفَجْرِ الْوَضَّاءِ فِي الْأُفُقِ الْفَسِيحِ!!

فَقَدْ بَدَا لِي هَذَا فِي جَلَاءٍ مِنَ الْعَاطِفَةِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي حَدَتْ بِكَ إِلَىٰ أَنْ تَنْدَفِعَ إِلَيَّ -مَعَ قَسْوَتِي عَلَيْكَ- وَتُقَبِّلَنِي قُبْلَةَ الْمَسَاءِ.

لَا شَيْءَ يُهِمُّ اللَّيْلَةَ يَا بُنَيَّ! لَقَدْ أَتَيْتُ إِلَىٰ مَخْدَعِكَ فِي الظَّلَامِ، وَجَثَوْتُ أَمَامَكَ مَوْصُومًا بِالْعَارِ، وَإِنَّهُ لِتَفْكِيرٌ ضَعِيفٌ.

أَعْرِفُ أَنَّكَ لَنْ تَفْهَمَ مِمَّا أَقُولُ شَيْئًا لَوْ قُلْتُهُ لَكَ فِي يَقَظَتِكَ، وَلَكِنِّي مِنَ الْغَدِ سَأَكُونُ أَبًا حَقًّا!!

سَأَكُونُ زَمِيلًا وَصَدِيقًا!!

سَأَتَأَلَّمُ عِنْدَمَا تَتَأَلَّمُ، سَأَضْحَكُ عِنْدَمَا تَضْحَكُ، سَأَعَضُّ لِسَانِي إِذَا انْدَفَعَتْ إِلَيْكَ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللَّوْمِ وَالْعِتَابِ!! وَسَأُرَدِّدُ عَلَىٰ الدَّوَامِ -كَمَا لَوْ كُنْتُ أُرَاجِعُ مَحْفُوظِي-: **إِنْ هُوَ إِلَّا طِفْلٌ!!**

لَشَدَّ مَا يَحُزُّ فِي نَفْسِي أَنَّنِي نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَرَجُلٍ، إِلَّا أَنَّنِي وَأَنَا أَتَأَمَّلُكَ الْآنَ مُنْكَمِشًا فِي مَهْدِكَ؛ أَرَىٰ أَنَّكَ مَا زِلْتَ طِفْلًا، وَبِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ كُنْتَ بَيْنَ ذِرَاعَيْ أُمِّكَ تَسْتَنِدُ وَرَأْسُكَ الصَّغِيرُ إِلَىٰ كَتِفِهَا!!

وَقَدْ حَمَّلْتُكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ!!(*).

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَنَا جَمِيعًا بِحِفْظِهِ الْجَمِيلِ، وَأَنْ يَحْفَظَ أَوْلَادَنَا وَأَوْلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسُوءٍ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*/٢).

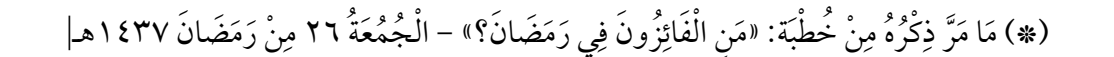

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «مَنِ الْفَائِزُونَ فِي رَمَضَانَ؟» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٧هـ| ١-٧-٢٠١٦م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الصِّحَّةُ الْإِنْجَابِيَّةُ بَيْنَ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَحَقِّ الطِّفْلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٥هـ| ٥-١-٢٠٢٤م.

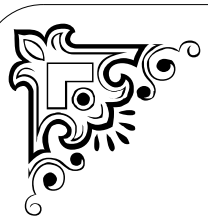

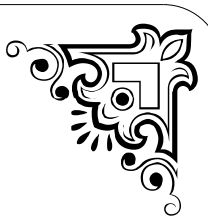

الْفهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

مُهِمَّةُ إِعْمَارِ الْأَرْضِ ٤

إِعْمَارُ الْأَرْضِ بِالتَّوْحِيدِ وَخَرَابُهَا بِالشِّرْكِ ٨

الْإِنْسَانُ وَالْبِيئَةُ.. وَتَسْبِيحُ الْكَائِنَاتِ اللهَ ٣٨

تَسْخِيرُ اللهِ الْبِيئَةَ وَمُكَوِّنَاتِهَا لِلْإِنْسَانِ ٤٢

تَعَالِيمُ الشَّرِيعَةِ وَقَضَايَا الْبِيئَةِ ٤٦

نِعْمَةُ الْمَاءِ وَضَرُورَةُ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ ٥٣

الرِّفْقُ بِالْحَيَوَانِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ٦٥

الْحِفَاظُ عَلَىٰ الْبِيئَةِ وَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنْهَا ٧٠

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ٧٤

صَلَاحُ الْكَوْنِ وَالْعَالَمِ بِالتَّوْحِيدِ وَمُحَارَبَةِ الشِّرْكِ ٧٩

التَّرْهِيبُ مِنَ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ

الْأَوْلَادُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ وَزِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٨٩

نِعْمَةُ الْأَوْلَادِ مِنْحَةٌ أَوْ مِحْنَةٌ ٩١

مَظَاهِرُ إِهْمَالِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَعَوَاقِبُهُ ٩٤

الْحَثُّ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَبَيَانُ أَهَمِّيَّتِهَا ٩٧

إِهْمَالُ الْأَوْلَادِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ١٠١

ثَمَرَاتُ الِاهْتِمَامِ بِتَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ ١٠٣

وُجُوبُ الْعِنَايَةِ بِالْأَبْنَاءِ وَهُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ ١٠٦

ظَاهِرَةُ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ ١٠٧

مَظَاهِرُ الْعُنْفِ ضِدَّ الْأَطْفَالِ ١١١

رِفْقُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَطْفَالِ ١١٨

رِسَالَةُ أَبٍ نَدِمَ عَلَىٰ قَسْوَتِهِ مَعَ ابْنِهِ الصَّغِيرِ! ١٢٢

الْفِهْرِسُ ١٢٧